DAMAGE BOOK

*

*

غادة لبنان

تأليف

أحمد العاصي

١٩٢٦

مطبعة جريدة الصباح بمصر



« كتبت الرواية فى لبنان ،واستمدت روحها من روح لبنان ،وحدثت وقائعها فى مصر ولبنان ، فأنا أقدمها الى وداعة آل مصر والى طيبة آل لبنان »

احمد العاصى

*

— ١ —

جلس كمال فى غرفة استذكاره مكبا على كتاب من كتبه يداه الي رأسه .وهو ساهم لايقرأ ولايفكر ولا يتحرك كأنه تمثال قد صنع على هـذا الوضع ، فمر بنافذته والده وقـد مر الهزيع الأول من الليل فرآه علي حالته تلك فلم ترقه فانتظر قليلا فلم يأت الانتظار بجديد فدخل الى كمال فلم ينتبه اليه ولما قاربه نهض اليه بعينيه ثم قام محييا . فاستفسره والده عن شأنه هذا فلم يبد شيئاً غير أنه مثقل الرأس وفى حاجـة الي الراحة فتركه والده على أن ينتهى الي فراشه

فنهض كمال وارتمي به فعاودته أفكاره السوآء فامتنع عليه نومه ،لأن النوم والهم لايجتمعان فهـو مهموم مامن ذلك بد وهو مضطرب مافي ذلك ريب ولـكن فيم هو مهموم ومم هو مضطرب ، لايدرى أحد حتى هو نفسه ، فلما أبى النوم أن يزوره أعاد عليه طلبه فامتنع عليه فأسلم فكره للتفكير العميق

أجل أسلم فكره الي هذا التفكير الذى لم يوصل احداً فى الحياة الي شيء وان اوصله فالي الحيرة والأسي حتي اقد عدوه داء يجب الاسراع بمقاومته وتخليص المرء من ورطته

أخذ كمال يفكر حتي انتهي الي قوله « أجل انني حاول النوم والنوم يعاندني وبعد قليل ينقاد، ثم أنهض فى الصباح اني عملى ثم أعود الي استذكارى ثم أمل فأنام، وهـذه هي حياتي، فهي خدعة، وهي مهزلة ! » وهنا يثـور رأس كمال فيضطرب ثم لا يلبث أن يتذكر أنها حياة تافهة لا تستحق عناء ولا تفكيرا فيهدأ ثائره ويترك كل شيء، يسير كما يهوى

واذا تخور قواه يغمض النوم جفنيه ويضم الفراش جنبيه ويمحو الرقاد همه ويسلمه الي عالم آخر : عالم مجهـول لا يدرى أحد عنه شيئاً، ولـكنه عالم الراحة وكفي

— ٢ —

نهض كمال وقد محا النوم من ذاكرته كل شيء، فكان نشيطـاً مستعداً لأداء عمله أداء حسنا، فارتدى ثيابه هـادئاً وقصد مدرسته ساكنا،

فمر فى طريقه برجل مرتم على طوار يخيل اليك أنه افترشه الليل كله . فتأمله كمال فاذا هو مختبىء فى أطماره البالية ولا يكاد يبين منه الا يده مدت للسؤال — فثار راس كمال وعاودته للحظة أفكاره السوداء فسار فى طريقه يصيح فى اعماق نفسه: « لا — لا أعطي هذا الرجل شيئا . فما بقاؤه فى هذه الحياة . ما بقاؤه فيها وسجنها مفتح الابواب . أجل ونحن على ما نحن فيه من بسطة قد ضقنا بها وضاقت بنا . فما بقاء هذا وأى خدمة يؤديها للمجتمع . وأى فكرة أوجدته فى العالم ؟ ! » ثم يشرد به فكره شرودا قاسيا فما يكاد يتنبه حتي يجد نفسه قد وصل الي المدرسة فيدخل فى سكون لا يحيى أحداً ولا يحدث سواه . حتى يرتمي فى مقعده فى غرفة التدريس . فمتى يقدم مدرسه يستمع لما يقول ويجتهد فى جمع قوى عقله جهدا كبيرا فيجتمع منها ما يجتمع ويشرد ما يشرد حتى ينقضي الدرس وينقضي ما يليه وهو تارة فى انتباه وأخرى فى انشغال حتي ينتهي بدروس يومه فيعود الي منزله غير مصطحب أحدا فى طريقه بل لقد يمر به يومه دون أن يحادث احدا من ساعة قدومه الي مدرسته الي ساعة مغادرته اياها

— ٣ —

غادر كمال مدرسته فساورته الافكار ونشطت برأسه فأخذ يناجي نفسه في نفسه ويقول : « فيم يضحك هؤلاء الطلبة الاغرار وفيم يهزئون . وفيم هذه الضجة التي يحدثونها من أجل علو تافه في علم من العلوم وفيم يطير أحدهم بكلمة إطراء من مدرس وفيم هذا ، وفيم ذاك ؟ . . »

ثم ينفصل سرب افكاره وصوله الي منزله فيجد اباه واخاه لدى المائدة في انتظاره ، فيجتهد ألا يظهر امام والده بشيء من الاكتئاب لانه يحس أن التفكير قد كسا وجهه ثوب هم لا يسر ناظريه ، ولكنه يعجز عن محو هذا فيتبينه والده ويتبين لديه ان ابنه مهموم ، فيألم لأنه لايدري سر همه ، فيسأله عن شؤونه لعله يستدرجه الي شيء من ذلك فيكون عبثا مافعل ثم يلف بهم الحديث الى موضوع يجادل الاخ فيه أخاه والوالد لاه عنهما بالتفكير في هذا الشأن الجديد من شؤون ابنه

وإذ ذاك تنتهي بهم المائدة فينهض كمال الي غرفته . ويكون الحديث قد الهاه قليلا عن تفكيره . فلا يخلع ثيابه ويرتمي على

فراشه حتى يلحق به النوم فينقذه من معاودة افكاره السوداء

— ٤ —

استيقظ كمال من نومه مطربالان احلاما مزعجة قد اقضت نومه فهب منه ثائر الرأس متعبه فاصطحب كتابا من كتبه وهبط الي حديقة منزله لعل في مناظرها ما يرفع من همه وانقباضه . وكانت الحديقه منسقة اجمل تنسيق . آخذة أجمل زينتها وكان من عادة البستاني اذا رآه أن ينهض فيجمع باقة من الزهور ويقدمها اليه . فلما كان هذا اليوم ونزل الي الحديقة مهموما لما ألم به من حال لا عهد له بها جلس على متكأ هنالك فأتاه البستاني بالباقة فأخذها ساكنا فلحظ البستاني ان كمالا مهموم لأنه لم يسأله عن انواع الزهور الجديدة التي لديه ولم يهتم بحديثه بشأن ما فتركه وانصرف لعل له شأنا قد أهمه أما كمال فقد تناول باقة الزهور ثم أخذ يحادث نفسه هذا الحديث

«البستاني رجل له من الحواس ما لنا فلماذا لا اجده يوما ما وفي يده زهرة يتأملها او يستنشق عبيرها . اذهب الفرق بين الناس الي هذا الحد حتي أهملت الحواس أو قمدت عن عملها

ولم أراه يقدم لي هذه الزهور وما فى ذلك من لذة له . وفيم هذا الملق كله . ولم لا يكون ارفع من ذلك ، ادام مؤديا واجبه . اليس هو خادما من خدام العالم الذى سأكون له خادما يوما ما . فهو اذاً قد سبقني الي خدمته . ثم ما السر فى ان بعضنا يتملق بعضا ويتمسح به وكلنا خدم فى هذا العالم . ولم لا تكون جميع المهن في المنزلة سواء . وكل يؤدى الدور الذى انتدب اليه لتمثيله فى هذه الحياة دون أن يعد نفسه رفيعا أو وضيعا مقارنا بهذا أو بذاك . وهل من عيب ان يأخذ ممثل على مسرحه دوراً ممتهنا أو مهنة متأخرة . ألا ان هذه اعتبارات منكورة ونحن الذين اختلقناها فأفسدنا وجه الحياة بهذه الاختلافات والتباينات »

وبينما هو مستطرد فى أفكاره اذ ينتبه على صوت الخادم يناديه لأن اثنين من رفقائه قد قدما لزيارته . فينهض اليهما متثاقلا

— ٥ —

كان كمال جالسا الى رفيقيه وكان والده جالسا الي اخيه يستنبئه أمر كمال ليدرك منه ان كان قد وقع منه لكمال ما يؤلمه أو يزعجه فيجيب الأخ انه لا يعلم له سرا وانه لحظ ما به منذ

يومين وأدرك ان كمالا ضيق الصدر سريع الانفعال وانه ما حادثه عن أمر او أدلي اليه بخبر الا استتفه هذا وذاك وعمل على تفنيده

قال الوالد: وما شأنه بالمدرسة فهل سمعت عنه من جديد قال لقد قابلت الآن رفيقين من رفقائه قد قدما اليه لزيارته لانهما أدركا انقباضه فى المدرسة وذهاب فكره فأهمهما الامر وانهما لديه الآن فإذا خرجا استفسرناهما. قال الوالد «اما علمت له من علاقة بأحد آخر» قال لقد مضى به يومان لم يغادر المنزل للرياضة ولا أعلم عنه دون ذلك» فعجب الوالد من شأن كمال وزارت رأسه فكرة أراد أن يتثبتها ثم يدفع الايام ببحثه لأن تظهرها اليه. ثم نهض الاخ لانتظار الرفيقين ومكث الأب يناجي نفسه ويقول: «لقد استفسرت بالأمس أحد أصدقائى عن انقباض هذا الابن وانكماش حياته فى مثل هذه السن من شبابه فأفضي الى بأنه يعللها بالعلائق النسائية. والعلائق النسائية تتلف رأس الشباب واضطرابها يدفع الى اضطرابه. واني لأجد في ميلا للأخذ بهذا الحديث. لأن كمالا الآن فى العشرين من عمره وهى سن القلق والاضطراب

ولـكنى أعلم عنه استقامة الرأس واستقامة النفس.ولـكن...
وبينما هو فى مناجاته اذ عاد أخ كمال بعد أن استفسر صديقيه
الامر . فقال الوالد ماعساهما قد حدثاك به قال لقد أخبرا أنه
يغرب فى أفكاره وبحثه وأنه يشاركهما فى المواضيع الدقيقة
ويترك المواضيع التافهة بل يحقرها ولم يشأ أن يصطحبهما للرياضة
وترويح النفس ويخيل اليهما أن لديه هما يشغله لأنه لم يشاركهما
فى ضحكة أو ابتسامة »فقاض عجب الوالد وأبرم أن يقع على سر
كمال مامن ذلك بد

— ٦ —

لما نهض كمال الي صديقيه نهض متثاقلا متألما لانهما
قطعا استعراض جيش افكاره مع جمال هذا الاستعراض ومع
تلذذه به . فلما لاقاهما حياهما بفتور وجلسوا قليلا صامتين ثم
كسر أحدهما الصمت فقال : أين كنت ياكمال .قال كنت
بالحديقة وها كما بعض زهور جمعها لى البستانى فهل لـكما فى
نوع خاص منها أم جميع الزهور لديكما سواء . قالا دعنا من
شعر الشعراء فكلها زهور متماثلة وما معنى غرام أحد بزهرة

خاصة . ان هو الا تعمق تافه . فصمت قليلا ثم قال : ان الله لم يخلق هذه الزهور الا لينعم بها الانسان ويعجب فأذا كان الانسان سيستفهها ولا يعني بها ولا يجد فى كل منها مزية فمعني ذلك أنه لم يقدر ما أعطاه الله ولم يقوم هدية منحته الطبيعة اياها . على أني أظن ان فى تقدير بعض الناس لزهرة خاصة رجوعا إلي حادثة خاصة كان لهذه الزهرة بها شأن ، أو أنه قد ركز كل اعجابه بالزهور فى هذه الزهرة فأصبح يجد أنسا واغتباطا بوجودها بين أسبابه والانسان كلما ركز فكره فى شأن عظمت قيمة هذا الشأن لديه وإن تكن من قبل تافهة. فقاطعه صديقاه معا وقالا . ماعهدناك فيلسوفا يا كمال فانهض بنا لنرى المباراة فى اللعب هذا اليوم فلعلها تلهيك عن هذا قال وما معني أن يخذل فريق فريقا ثم يخذله هذا فى غده وما قيمة جهد كبير لاطائل تحته ينفق فى تضارب كرة بين عدة أرجل ألا ما اتفه كل ذلك ، ألا إن الحياة فوق ذلك ، وسرها أرقي من ذلك ولا بد أننا قد خلقنا لغير هذا . فذهل الصديقان ثم نهضا وقالا : لنتركك الان يا كمال فيبدو لنا أن أحد كتب

الفلسفة قد أفسد عليك رأسك ، ثم ضحكا وكمال ساهم ثم استأذنا وكمال لم ينهض وإياهما إلي الباب كعادته . بل ظل ثابتا جامداً حيث هو

— ٧ —

كان كمال طالبا من طلبة الطب وكان ذكي الفؤاد رقيق النفس كبير العزم وكان دقيقا فى أفكاره وبحثه مولعا بالبحث عن أسرار الأمور منذ نشأته فلما شب شبت معه هذه الافكار وكبر معه هذا التدقيق واتسع أمام عقله الحاد مجال العمل . فوقف أمام معضلة الشباب موقف ذى عزم تارة وموقف اضطراب تارة أخرى ولكنه لم ير فيها رأى سواه من الشباب. فهؤلاء يرون لهو الصبا لذة كبرى أما كمال فيحتقر هذا اللهو ويصغره لأنه أقيم على غير قاعدة ولأنه تافه فى كونه ولانه لا يضم جانبيه على سعادة حقة والامر كله خيال وهزل لا يستخدم فيه عقل . فلما لم يرق لديه لهو الشباب بعد ما قد ألم به فاستفهه لم يرق اليه إلا التفكير العميق . والتفكير لذة وإن حسبه الكثيرون تعبا ونصبا . والنشاط الادراكي سعادة

وإن حسبه البعض هما . إلا أنها سعادة كثيرة التقلب حتى ليرى فيها الكثيرون أنواعا من الاسى . وما كانت السعادة لتنتج الاسي — وبعد فهذا التفكير قد أخذ هذا الشاب المسكين وأوقفه أمام عقدة الحياة . عقدة البحث عن قيمة الحياة . عقدة البحث عن معنى كل شيء فيها . وتلك عقدة عنيدة لا تكاد تحل وما حلها إلا البعد عن حلها . والتفكير في سواها وتحويل النظر عنها . فلما وقف كمال أمام هذه العقدة وقف موقفا محرجا . وقف مهموما لا يهتدى إلي غاية فكل شيء أمامه تافه وكل حقيقة خيال وكل كبيرة صغيرة وكل اهتمام لم يصب موضعه. جميل هذا ولكن عدم المبالاة لا يوصل إلي شيء وإن أوصل فالى نتيجة أتفه من الاولي وإلي عقدة أعند منها لانه لا قيمة لحياة غاية المرء فيها عدم مبالاته إذاً فكل عقدة توصل هذا الشاب إلي أخرى . وكل فكرة تقذفه الي سواها. فهو مهموم ومضطرب وكفي !

— ٨ —

خرج الصديقان من لدى كمال وتركاه وحده والتفكير

يتاف عليه رأسه فأخذ يسأل نفسه . ما غرام هذين الشابين بالحديث التافه وماغرام سواهما به وما معنى هذه الثرثرة التي يجتمع عليها الناس كل آن ويسمونها اجتماعا يانسون به . وما معني هذا الانس وهاهما ذان صديقاى قد اجتمعا لدى وانفضا وماشعرت بأنس أو سواه . ألا أنه يجب أن ينتج كل اجتماع نفعا وإلا فلا داعية له . ولكن ماذا يستفيد الناس بعضهم من بعض . إن كل مالديهم تافه وكل بضاعتهم مزجاة . فما ألذ العزلة حيث يجتمع الانسان بنفسه وآرائه ويتخذها أصدقاء أعزاء لايقلق أحد منهم عليه مقامه ولايجادله مجادلة عقيمة ولا يدلي بمالا يطمئن اليه . والانسان إذا ركن إلى نفسه أمكنه أن يصل إلى لب الامور . . . . . .

ثم يسترسل كمال فيقول فى نفسه : ولكن ماهو لب الأمور هذا . وكيف نريد البحث عنه والامور جميعها واضحة لاتستحق عناء وماترك الناس البحث فيها إلا لوضوحها .

ثم يعود فيقول لنفسه : ألا يمكن أن يكونوا قد تركوا البحث فيها لغموضها أو ليريحوا أنفسهم من عناء بحثها . اذاً

فلكل أمر سر غامض ويجب ان يكون الناس قد فهموه فهما خاطئا . ولهذا كثر من يألمون بحياتهم ورجح عدد الناقمين عدد المغتبطين الراضين . ولكن الا اكون واهما فيما ذهبت اليه فأن الناس جميعا متشبثون بعيشهم حتى ان احدهم وهو على فراش موته والآلام تساوره وتلدغه فى كل مكان . يرجو الحياة ويتمناها ولا يتمنى سواها ، بل يتمناها على اى وجه من وجوهها . فالكل اذاً مغتبط وانا وحدي ناقم فهل يعلمون سراً لا اعلمه . كلا فأني قدعاشرتهم طويلا فلم اجد لديهم سراً فلا بد انهم مخدوعون فى حياتهم . ولكن هل خلقنا لنخدع . هذا محال ومخالف لكل رأى قويم وذوق سليم . اذاً فهناك سر لهذا العالم قد اخطأناه وكفى

ثم تبلغ بكمال هذه الافكار السوداء فيرتمي على مقعد فى الغرفة ويظل ساهما محلقا بنظره الى نقطة واحدة لا يبدلها حتى يستيقظ بنداء الخادم اليه لينهض لتناول العشاء فيهب منزعجا ثم يسعي متثاقلا بعد ان اقلق رأسه شر اقلاق

— ٩ —

لك الله يا كمال . انت طيب القلب حاد الذهن عالي الفكرة
دقيق النظر . ولكن الحياة تحتاج منك ان تهون امرها اكثر
من ذلك . ان دائرة عقولنا لاضيق من ان تتسع لاسرار هذا
العالم وحكمة هذه الحياة . أجل ان لكل شيء سراً غامضاً
ولكن الناس لو عرفوه لما اقتنعوا به ولضاقت عقولهم عن
فهمه . وان الحكماء والفلاسفة ليظهرون للناس مايصلون اليه
من سر هذا العالم فلا يزيد ذلك عقيدة الناس ثباتا ولا يقوى
ما ضعف منها وانما يقويها ويقومها ان يتركها الناس وحدها
تثبت نفسها بنفسها وان يعجبوا بكل شيء في الوجود ويحبوا
كل شيء في الحياة فهذا الحب وهذا الاعجاب هما اللذان
يبعثان في نفوسهم احترام هذا العالم وهما اللذان يقويان من
عقائدهم وكنى . ام ماذا تريدان تستكشف من كنه هذا العالم
ولقد صفقت بالامس بمسر سائل يسألك عطاء وحسبته لا موضع
له في هذه الحياة ولا شأن . مع ان في منظره عظة للناظرين
ودفعا لليأس عن يائس ودفعا بالرضى الي قلب مبتئس وكان

واجبك حين رأيت هذا السائل أن تطمئن الي ما انت فيه وترى ان اولي بالنقمة سواك ممن يعاندهم الدهر

ولكني اعلم ان حديثي هذا لا يبلغ من نفسك يا كمال ولا يقنعك لانك اوقفت نفسك على رأس طريق لا بد من قطعه ولان نفسك تريد أن تشتفي وهي لا تشتفي .وما يلذك الآن الا ان تبحث في سر عيشك وسر وجودك وفيما ستقدمه للناس وفي كل شان من شؤون الناس .ولكنك سترى ان جميعها معوج وأن السنين وكرها لم تهذب منها شيئا.وسترى أن الناس يهتمون بحقير الامور ويعظمون توافهها وسيصغر لديك شان الحياة . فانا ارجو الله لك يا كمال وكفي

— ١٠ —

نهض كمال الي المائدة في سكون وكانت الآلام قد ودعته فسر والده بذلك سروراً كبيراً . وكان لدى المائدة هو ووالده واخوه وفتاة متعلمة من اقربائهم فجلس الجميع يتحدثون ويتباحثون في التعليم وسواه ، ولقد اطالوا البحث في تعليم الفتاة واسهب كمال في هذا وجادلته الفتاة طويلا . وكان رأى

كمال قويا وحجة ناهضة فاعجبت به الفتاة بينها وبين نفسها وشعر والده بشيء من الاغتباط إذ رأى آراء كمال معتدلة واذ رأى الهم قد انزاح عنه، اجل لقد رأى كمالا يعضد تعاليم الفتاة تعاليما قويا تستطيع به ان تشارك زوجها في تفكيره وتبادله آراءه فلا يجد الزوج بينه وبينها هوة سحيقة فيضطر لان يتركها الي الجلوس مع بضعة من اصحابه يثرثرون ويهرفون في مجتمعات لا انس فيها ولا نفع لها ولكنها اشفق به من ركونه الي زوجته تلك

ولحظ الوالد ان كمالا يقدر الزوجة ، ويقدر سعادتها والانس بها . وادرك بعد هذا او خيل اليه ان كمالا قد انس الي الفتاة واسترسل في الحديث من اجلها ! وبعد فقد انتهي الجميع من حديث المائدة وما بعد المائدة ثم انفضوا ونهض كمال الي حجرة استذكاره . وقد اعتقد والده ان جرحه قد التأم وانها عارضة قد امحت والحقيقة ان هذا الانس الذي البسه كمال كان عارضا وان هذه الحال التي البسها كانت نسيما ارسله الزمن علي قلبه ثم لا تلبث ان تهب من بعده العواصف والزعازع . فوا رحمة لك يا كمال

نعم يا كمال ان مشاركة النساء الرجال في مجالسهم ومجتمعاتهم مشاركة شارحة مدعاة لاغتباط النفوس مخففة لكل ملل باعثة على الرقة في الرجال والتجمل في النساء. على انه لا يوجد حد فاصل بين الرجال والنساء يضطر هؤلاء للاجتماع وحدهم وهؤلاء للاجتماع وحدهن ولكن الله قد خلق النساء متممة للرجال في كل شيء وفي كل شأن من شؤون الحياة ولا يتم نظام الحياة الا بذلك فان كان للرجال ان يديروا الشؤون الخارجية للمجتمع فللنساء ان يدرن الشؤون الداخلية وان كان لهؤلاء آراء فلهؤلاء آراء متممة لها. فاذا اجتمع الفريقان امكنهما ان يتفاهما تفاهما معقولا. وامكن الرجل ان يفهم المرأة وامكن المرأة ان تفهم الرجل وحق لهذه الفرقة التي تنشا بينهما ان تزول. واول شيء ان يفهم الحزبان اللذان يكونان العالم كل منهما الآخر ويسعد كل منهم بالآخر ويتعاونا على النهوض بالحياة. وكلما زادت الفرقة بينهما زادت الحياة شقاء. وكلما زاحم احدهما الآخر امتلأت الحياة اضطرابا. فلا بد ان يعملا جميعهما وان يقسما العمل بينهما. للرجال شأن وللنساء شأن ثم يجتمعان

فى مركز واحد مركز خدمة العالم ومحاربة الامه واسقامه بالاجتماع والائتناس والمشاورة والنهوض باسباب الراحة فى الحياة وقتل كل مايعارضها . بهذا تصبح الحياة هينة وبهذا تنحل عقدتها . اما ان تصير المرأة والرجل كل واد فما هى مؤتنسة بعيشها ولا هو مؤتنس بحياته ولا كل منهما مؤتنس بالآخر

ولعل هذا كان رأى كمال فهو شاب مستيقظ الفكر ؛ ورجل أنضجه الزمن قبل أوانه . فلما رأى هذه الفتاة جالسة اليهم فى مباحثة وتبادل رأى اغتبط . ولعله نسي آلامه إلى وقت وأخذ يسهب فى بحث الامر وعرض وجوهه لانه مما يلذه ولا نستطيع ان نجد لكمال فى هذه الجلسة سراً سوى ذلك. ولا ان نجد لائتناسه داعية أخرى. فالموضوع جمال وللاجتماع جمال ولكمال تعشق للجمال ونفس كمال تريد أن ترى كل شيء جميلا . ولا يؤلمها الا أن الناس تسيء تدبير هذا العالم فيسوء منظره وتطمس آيات جماله من حيث هي تريده جميلا سائغا لأننا لم نخلق لنتعذب ونشقي وانما خلقنا لنسعد ونأنس بالحياة . تلك التى نرى غريزة فى نفوسنا ان نتشبث بها ونحن

لم نتشبث بها عبثا وانما السر يدفعنا الي أن نجمع انسها ونركض خلف سعادتها طول حياتنا. هذا هو سر كمال فى هذه الليلة وهذهي آراؤه فيما نرى . فلننظر ماذا ظن الآخرون به

— ١٢ —

ماأطيب قلبك أيها الوالد وما اعطفك على بنيك :

والد كمال تاجر متقدم فى تجارته مسلم بمهنته ولذا قد هيأت له الاقدار ثروة كبيرة وانه لجدير بها لانه مهر فى مهنته واحب الامانة ولاشيء اعمل على تقدم التاجر من هذين ولقد كان من سكان القرى نتركها الي العاصمة ليحيا حياة ارقي وليكون بجانب ابنه كمل وليربيه تربية راقية لانه يجب ان يكون له ابن متعلم يستطيع ان يقوم للعالم بخدمة جليلة لانه يعتقد ان عمل الانسان محدود مادام لم يتعلم. وانه ليستبشر فى كمال الفطانة وحدة الذهن ولا أحسن من تعليمه ولا سيما ان أخاه الاكبر قد حرم ذلك لالحاقه بتجارة ابيه

وسارت الحياة بهم جميلة رائقة : وكان كمال متقدما فى دراسته . وكان والده مطمئنا إلي ذلك ومغتبطا به ومقدرا له

مستقبلا جميلا ولاسيما بعد ان تقدم كمال لدراسة الطب . ففيما يرى والده انها اكبر خدمة يقدمها للانسانية وسينشأ رجل أمانة ومهارة وهما الأقنومان اللذان لا بد منهما لكل طبيب

ساد الامر كذلك بهذه الأسرة الكريمة وكان كمال محط أنظارها وكان الجميع يجلسون اليه في مجتمع أحايين كثيرة وكان كمال يحدثهم بما يحضره مما يلذهم ويتفق مع آرائهم من الافكار والآراء وانه فتى ذكي يستطيع ادراك ذلك ويستطيع اجراء الحديث كما يشاء . بل إنه يرى من ضعف بعض المتعلمين ألا يستطيعوا تبادل الحديث والآراء مع سواهم من غير المتعلمين مع أن أكبر ما يجدي المتعلمون على الناس أن ينهضوا بغير المتعلمين وبآرائهم ويدلوا اليهم بخير الطرق لتقدمهم ويأتوهم بما يطرب حياتهم ويجملها لأنهم قد نهزوا من العلم والتعلم واسع المجال ذاهب في كل النواحي والمتعلم يستطيع البحث في كل شيء وإتقان كل شيء والنهوض بكل شيء ومن الحمق الا ينجح المتعلم إلا في علمه وألا يتقن إلا مرافقة كتبه

نهض كمال إلى حجرة استذكاره وأخذ يستعرض ما حدث له في يومه . وعجيب ما حدث له ٠

فوقف أمام مسألة السائل فرأى نفسه محقا في آرائه عنها ثم وقف أمام خاطرة البستاني فرأى نفسه مصيبا فيها ثم وقف امام موقفه مع صديقيه وتبين له ماضيه مع اصدقائه فاستعرضه عاما عاما وصديقا صديقا فلم يجد شيئا مطربا ولم يجد الا حديثا تافها اولهوا تافها فهو لم يخطيء بأن لم يكن أنيسا لدي صديقيه هذا اليوم ٠ ثم اضمر في نفسه أن يتجنب الأصدقاء ويجلس إلي نفسه ويتخذ من فكره صديقا ومن رأيه مؤنسا حتي ينقاد له ما يريده من هذه الحياة . ثم فكر بعد هذا في حديث المائدة فرأى صوابا أن قد أسهب فيه وفي بحثه ورأى أنه أبلى إبلاء حسنا في ذلك فاطمأن ولا نكثر إذا قلنا وأعجبته قدرته لان أمثال نفس كمال من النفوس التي تميل الى المثل الأعلي والتي يعجبها قبل كل شيء أن تعمل عملا رائقا وتتحدث حديثا نافعا ولا تاتي ما استطاعت إلا بجديد . فهو حقا

قد اطمأن

الى هنا كانت افكار كمال معتدلة فابتدأ استذكاره وافتتح كتابا من كتب الامراض واخذ يقرأ فما قرأ قليلا حتي شعر بالملل فأسلم يديه الى رأسه وامتنع عن قراءته فهبت على رأسه عاصفة من الافكار أثارتها قراءته عن الامراض وبحثه لشأنها وأدوارها واضطراب أصحابها وآلامهم. ومن كان في حالة كمال هذه لم يكن ملائما لديه أن يقرا مثل ذلك لانه يذكره بالاسقام والمحن ولكن هكذا شاء القدر أن يتعذب هذا الشاب المسكين فأسلم رأسه للافكار وأخذ يحادث نفسه هذا الحديث. هذه امراض كثيرة تنتاب بني آدم فريقا دون فريق ولعل من نجا أحق بها ممن أصيب فما السر لاختيار القضاء لهؤلاء دون هؤلاء لا بد أن هناك من سر . على اننا نرى الشاب فى طراوة حياته ومستقبل ايامه ونرى مرضا اليما قد اعتوره فأتص حياته ونرى الفتاة طيبة القلب . حسناء الوجه والنفس ثم نري المرض قد الم بها فقلب حسنها قبحا وطيبتها نقمة . فهل يكفي ان نعتقد أن الامراض اختبار للناس . وما الاختبار فى ذلك وما عسى.

تكون نتيجته كل مافى الامر أن يتم انسان وأن يصبر انسان يائسا او متحملا والمتحمل منتظرا اثابة فى حياته اوفى عالم آخر اذاً فالامراض لاتنتاب الناس لاختبارهم فحسب فهل تكون لتقوية عزائمهم كما ترى أن ويلات الحياة تشد العزائم . ولكن الامراض قوة فوق ذلك وما لانسان قبل بمقاومتها بل ان الانسان ليعجز امامها ويستكين فهي اذاً تعلم الاستسلام والاستخذاء . ثم ماقيمة اشتداد العزائم فى امراض تقصم العمر وتقود الي الفناء . اذا فهناك داعية أخرى للأمراض . فهل هي جائحة نصاب بها لنقاومها فحسب فان كنا خليقين بمعني الانسانية وبقيمة العقلية . أمكننا ان نقاومها أو أن نظهر فى ذلك كفايتنا ربما كان ذلك ولكننا نري الامراض ممتدة الي غير النوع البشرى. آخذة من جسمه اذاً فهي شيء شاذ لانعرف داعيته ويجب التخلص منه ولا تخلص منه إلا أن نترك من يصاب بمرض يقصمه موته فتخلو صفحة الارض من هذه الامراض لاننا نجد الامراض متقدمة بتقدم الطب وكلما زدنا مقاومته زادت انتشارا . ذلك لانا بالابقاء على المرضي والضعفاء نكثر وسائل انتشار الامراض

وعدد المصابين وهؤلاء يتناسلون تناسلا ضعيفا ولو اننا تركناهم للفناء كما كان يفعل اسلافنا اقلت نسبة المرضى كما كانت قليلة لديهم ولكانت صحتنا ارقي من ذلك كما كانت صحتهم وكما كانوا أرقي منا بمرحلة بعيدة فى قوة أجسامهم وصلابتها

وكأنما هذه الفكره الشاذة قد أثارت رأس كمال لأنه رقيق النفس رقيق العاطفة وهذه فكرة قاسية ، لا تتفق مع الكرامة ولا الانسانية فاضطرب كمال وأزعج وحق له ذلك . ثم رمي بكتابه وارتمي على فراشه

— ١٤ —

كان ماألم بكمال فى هذه الليلة قاسيا كل القسوة إذ أنه قد أجهد نفسه ورأسه إجهاداً كبيراً حيث كان واجبه أن يريحهما فلما أصبح كان تفكيره مضطربا ـ فمل هذا العمل الذى انتدبته الحياة له وقصد المدرسة ثائراً ناقما ملولا فحضر الدرس الاول فلم يجتمع فكره ولم ينهض إلى فهم فلم يرق كمالا ذلك وآلمه جد الألم فارتمي على مقعد فى ردهة هناك خائراً متضعضعاً ومر به اليوم الدراسي وهو جامد هكذا فى مكانه

جلس على هذا المقعد هذه الجلسة التي ما تعودها من قبل. لانه رجل نشاط وعمل. رجل يعلم الواجب كما يجب أن يعلم. ولكن الضربة قاسية فأتلفت عليه تفكيره فلم يجد معنى لان يقوم للعالم بهذه الخدمة التافهة! ولم يعد يجدها خليقة بأن ينفق حياته من أجلها. بل لم يعد يجد دافعا من نفسه لدراستها غير مطمئن اليها غير عالم سرها وباعثها وما يجب علينا تلقاءها. ورأى أن المجهود يجب أن يتجه لما هو أجدى من ذلك. أجل لما هو أجدى من الترميم التافه للأجسام! كما أصبح يراه كمال. وسوى هذا المجهود لاصلاح العالم حيث يجب تركه يسير كما يهوي!

إذاً فتفكير كمال أصبح عجيبا مضطربا. فاستمر به ذلك حتى رأي الطلبة عائدين إلى منازلهم فامتطي رجليه وسار متثاقلا إلى منزله ورأسه ثائر يكاد ينفجر

— ١٥ —

قصد المنزل ودخل غرفته واستلقي على فراشه ومنع بقوة عزيمته كل فكرة ان تتصل برأسه. فأطاعته الافكار وانتحت عنه. ثم طلب النوم لينقذه فلم يشأ معارضته. فنام هذا

المسكين نوماً عميقاً كأن شيئاً لم يحصل . ولو أن فكرة قاسية اتصلت برأسه قبل نومه لالهبته إلهابا ولساءت عقباها

لله ماأعجب أطواره وماأقوى عزيمته !

وبعد قليل جاء الخادم يناديه لتناول غذائه فهب منزعجا صائحا بالخادم « اذهب عنى كيف جرؤت على إيقاظي » ثم استعاد النوم فعاد اليه ولم يستطع احد إيقاظه

« ما اكثر ماعذبك القضاء حيث تستحق منه كل عطف ولكن لذلك سراً . ما من ذلك بد . فما من رواية الا ولها مغزى »

هكذا كان كمال تناجيه نفسه بعد نهوضه من نومه فى الأصيل

شعر ذووه بنهوضه فجاءوه بالطعام فأخذ يتناوله ويقول بين أكلة وأكلة لا فرق بيننا فى هذا التناول وبين اى حيوان آخر ثم يعود فيقول . بل ان اهتمام الانسان بطعامه قد فاق اهتمام اى مخلوق آخر . وكم من شقاق ونزاع ينشئه الاهتمام بالطعام بل ان أغلب بنى آدم او عدداً كثيراً منهم ان أحسنا القول - يعيشون ليؤدوا هذه الوظيفة - أجل وظيفة تناول الطعام - من حيث كان يجب ان يكون ذلك أمراً فى الدرجة

الاخيرة من الاهتمام . لان فى استطاعة كل انسان أن ينهض به بأقل ثمن وبأتمه مجهود مادام لا يعتبر الا فرقا تافها بين نوع من الطعام وسواه ، وهل يحس الانسان بفرق بين الاطعمة إلا لحظة مرورها من فمه وهل هذا يستحق كل هذا الاعتبار الكبير من عقول بني آدم وجهودهم ، ولولا الاهتمام بالطعام ما رأينا الشح ولا سمعنا عن الطمع ولا شاهدنا سائلين ولا بائسين ولا عاجزين لا يجدون ما يتبلغون به ، أجل يجب أن نترفع بعقليتنا عن أن يكون الطعام همنا، وما ضرني لو لم آكل أكلا ثمينا وأكلت أكلا سواه محسنا بفرق ما بين الاثنين الى سائل محتاج فأقتل جوعا قد قرح معدته ، إنني قد استشعرت ألما عند نهوضي من نومي لأني لم أتناول غذائي ، إذاً فالجوع أليم وقاس ، ولكن فى استطاعتنا أن نمحه من العالم وننهض بضحاياه ونصيرهم قوى عاملة فى الوجود . أجل إن فى استطاعة الناس أن يقاوموا كل جائحة ومحنة لو تعاونوا وفى استطاعتهم أن يملئوا العالم سعادة لو شاءوا ، ولكن لم لا يفعلون ، ولم لم يفعلوا من أجيال بررحت ، ولم يتدهورون فى انسانيتهم جيلا بعد جيل ، إذاً لا بد للأمر

من سر ، أفي كل أمر نرجع الى سر لا نعرفه: هذا مدهش :
هذا مدهش ..

وكأنما ثار رأسه فأخذ يردد هذه الكلمة فاتفق ذلك
ودخول أبيه فاستفسره الأمر فلم يبد شيئا فأزعج الوالد علم
أن الجرح لا يزال داميا ، ثم طلب إلى كمال أن ينهض فيروح
عن نفسه بالذهاب إلي دار تمثيل أو سواها فأبى أولا إلا أنه
رأى أن يذعن لارادة والده فارتدى ثيابه لوقته وخرج

— ١٦ —

نحن نرى إذاً أن المحنة قد اشتدت بكمال فاصبح ملولا للعمل
وقد كان مجداً ، وضيق الصدر وقد كان رحبا، وهذان كافيان لتغيير
شخصيته لولا أنه كان قويا فاحتفظ بكثير منها وهو وإن كان
يشير دشروداً عجيباً في بعض بحثه فلا نزال تفكيره دقيقا وتحليله
في كثير من أحايينه سائغا ، وها نحن أولاء نراه مرة أخرى قد عاد
إلي فكرة السائلين وعطف عليهم من حيث كان يريد من قبل أن
يخلي العالم منهم ، ثم نراه قد عاد فأغرب في بحثه في تناول الطعام
وهو وإن لم يكن بحثا جيداً إلا أنه غير مستطاع أن يمر بأفكار

الناس جميعا . فهل لهم أن يعتقدوه أو يأخذوا به؟ هذا محال؟ إذاً فكمال قد ذهب بعيداً . فتنتظر ماذا نرى في دار التمثيل

— ٧ —

اهتم والد كمال بأمره اهتماما كبيراً ، بعد ما سمع شورانه إذ أيقظه الخادم وبعد ما دخل عليه في غرفته فرآه يردد جملة واحدة في صوت مرتفع ، أجل لقد أزعج الوالد وظن أن الأمر مراً ، ولقد كان بالأمس قد استشار صحابه من ذوي الحنكة والتدريب ، فأخبروه أنهم يرجحون أن لكل علاقة نسائية أتلفت عليه رأسه ، وأكد الأمر لدى الوالد ما رآه من غبطة كمال وانبساط صدره يوم أن تناولوا الطعام وكانت في رفقتهم تلك الفتاة من أقربائهم ، فهل يكون له علاقة بفتاة مثلها ، ربما كان هذا بعيداً لأنه بعيد بنفسه عن مثل ذلك بل محتقر ، فهل يكون به ميل إلى تلك الفتاة نفسها . ربما كان ذلك ، إذاً فليبحث الوالد خلف ذلك ، لأنه لابد له من أن يحل معضلة ابنه قبل أن تتفاقم وتصبح محاولة حلها عبثا ، ولأنه ابنه النجيب الذي يعده قسما أخري له ، فليأت له براحته وإن تكن مختبئة خلف القمر ، أجل أن

الوالد عاطف والأبن بار والحالة عارضة والمقاومة واجبة ، فلا بد أن يستل كمال من بين أصابعها ويحتفظ به دونها

هذا ما كان يتلجلج في رأس الوالد في هذه الليلة التي غادر فيها كمال منزله إلى دار التمثيل ليروح عن نفسه

أجل إن كل والد يجب أن يعنى بشأن ابنه حتى ينشأ ويقود حياته بنفسه وإن أولي زمن برعايته والعناية به هو هذا الزمن الحرج من عمره . هو فاتحة شبابه ، هو ذلك الزمن الذي يظن فيه الابناء أن لم يعد لهم حاجة برعاية آبائهم من حيث هم أحوج ما يكونون اليها ، ذلك الزمن الذي يسميه الأبناء زمن الاستقلال وتسميه الحقيقة زمن الرقابة ، إلا أن كمالا كان قد قضي أكثر هذا الزمن سالما آمنا بقوة عزيمته وكبير إرادته وعقليته السليمة ، فلما وصل إلى نهاية هذا الزمن الحرج ووقف على باب الحياة الكبري أو كاد كانت قد تجمعت لديه جيوش من الافكار فغزت رأسه واحتلته دون أن يكون له قبل بصدها فحار والده في الأمر إذ وقعت به هذه الواقعة الا أن الوالد قد ذهب مذهبا مغربا في فهم الأمر وكان ذلك

لطيبة قلبه وسلامة طويته ولعدم ذهابه إلى أن أحداً يفكر هذا التفكير أو تفوده هذه الآراء ، ومن هنا نشأت مشكلة أخرى بين الوالد الذي يستغلق عليه شأن ابنه وبين الابن الذي تنقاد له الا ور

— ١٨ —

قصد كمال دار التمثيل وكان أثناء ذهابه يلتقط كل أمر ويحلله الي عناصره ، وكثيراً ما كان يعجب لشؤون الناس كأنه لم يكن بينهم من قبل : فرأى رجلاً أراد سلعة من بائع متجول فلم يرقه الثمن فتركها فقال كمال فى نفسه : وماذا علي الرجل وهو يريد السلعة أن يرفع ثمنها بعض الشيء وان شاء فليعتبر ذلك صدقة للبائع المسكين ، ثم ركب الترام فرأى أنواعاً متباينة من الناس فى جانب ونوعا محترماً هادئاً فى جانب آخر فقال فى نفسه فيم هذا التفريق ثم نظر فوجد الأولين محدثين ضجة كبيرة ومتثرثرين فى لاشيء بل رأى اثنين فى مشادة كبيرة ليحوز كل منهما شرف دفع أجرة ركوبهما . فتألم كمال لذلك وحكم بأن هذا التقسيم عدل ثم شرد فكره الى جعل الناس بعضهم فوق

بعض درجات فقال ولا بدأن هذا عدل أيضا لأن الناس متباينون فى عقليتهم وكفايتهم كما كان هؤلاء الراكبون متباينين فى أذوقهم ثم بعد بفكره فقال ولم لم يكونوا متساوين فى الكفاية مختلفين فى مذاهبهم ومناحي تفكيرهم ، وكأنما حاول التعمق في بحثه فانقذه وصوله الى دار التمثيل

فنظر فوجد الناس مزدحمين حول نافذة التوزيع فلم يرقه هذا الازدحام وقال فى نفسه . ان الموزع لا يشتغل الا بقوة واحدة تبكأكأ الناس أم لم يتكأكئوا فلو أنهم تقدموا الى النافذة فرداً فرداً أو عشرة عشرة لكانت النتيجتان سواء فاذاً الكل مخطئون ، ثم عز عليه أن يخطيء الكل فقال لنفسه : ولكن لابد أنها الاثرة هي التي فعلت ذلك لان كلا يريد ان يقدم نفسه ، ولكن هل كل من يشاء التقدم ضعيف النظر والسمع فلا يرى ولا يسمع الا من كثب ، لا ، اذاً فهي مجرد عادة قبيحة يجب علاجها ،

ثم قطع تفكيره ان ضعف الازدحام وامكنه ان يتقدم ليتناول تذكرته فتناولها وانتظار يسائل نفسه:

هنا يمثل درجات الناس وتقسيمهم الي غنى ومتوسط وفقير ولكن ألا يرى الكل التمثيل كما كان ويسمعونه كما قيل فقيم يدفع هذا اكثر من ذلك ، اجل انه يقدم اكثر ليكون فى مقام ارفع ، اذاً ففي كل امر توجد درجات بين الناس يعملون علي حفظها ، ولكن الا يتجاوز هنا احد حده كما يتعدى الكثيرون حدودهم في كل شيء . اجل كثيراً ما يكون . فلعل متوسطاً كان متوفراً لديه المال الليلة والليلة فحسب فجلس في مكان المثرين اكراماً لنفسه بل لعل فقيراً يريد ان يجتاز دائرة الفقراء ولو مرة فى حياته فيجد ذلك يسيراً في دار التمثيل ويشترى هذا بشيء من الدراهم ولكن أمجرد جلوسه مع المثرين يصيره مثرياً ،إلا أنه يشوههم ان كان شاذ الثياب وان لم يكن فهو يرى نفسه غريبا ، اجل انه لغريب عنهم حتى فى حديثهم وضحكهم وابتسامهم ، وهنا انزعج كمال وصاح فى نفسه : «إلى هذا الحد» يفرق بين الناس حتى فى الابتسامة؟ وتكون هذه الانزعاجة قد نبهته فرأى نفسه يفكر هذا التفكير بجانب نافذة التوزيع ثم يرى باب الدخول قد فتح فيواجه مع الوالجين ولا يفوته أن

ينتقد ازدحام الداخلين مع ان كلا سيأخذ مقعداً معيناً لا يتغير بتأنيه او بتسرعه

ثم يجلس كمال في مكانه ويتسع لعقله المعذب طريق التفكير فان هنا للانتقاد مجالا رحباً .

فنظر فوجد بعض الجالسين فى الطليعة ينظرون الي خلفهم ليروا الناس تقدمهم فعلم انهم جالسون فى غير موضعهم وانهم ليسوا أهلا لذلك وأنهم بأنفسهم يستكثرون ذلك على انفسهم ، ثم نظر فوجد الكثيرين فى اضطراب واشتغال لا يؤهلهم لأن يشاهدوا التمثيل ويتعظوا او يدركوا له كنها فعلم ان هؤلاء قد دخلوا لمجرد الدخول ثم نظر فوجد الستار قد رفع والتمثيل قد بدىء فركز فيه بصره وفكره ولكنه بين آن وآن كانت تعاوده الافكار ويعاوده سلطان الانتقاد فيقهره كمال حتى لا يفوته شيء من التمثيل وكان يحمل فى ذلك جهداً وبين فصل وآخر كان يحدث نفسه مثل هذا الحديث : اني أرى الناس يتألمون لمنظر البؤس يمثل على المسرح فلم لا يتألمون لمنظره فى الطريق ولم يشيحون بوجوههم عنه فى الطريق وهم

هنا يحملقون اليه ولم أراهم يغتبطون بمناظر الفضيلة على المسرح ويهزأون بها خارجه ولا يقيمون لها وزنا، ويشمئزون من تمثيل الرذيلة هنا، واغلبهم بين براثنها فما معنى هذا وما السر فيه!! هكذا مايزال كمال يتلف رأسه في وقت الراحة ويتنبه اذا رفعت الستار حتي انقضى التمثيل وانفض القوم فخرج في أثرهم ولم يفته أن يرى في فترة خروجهم وانفضاضهم ما يبعث على الانتقاد الطويل .

وكانت الرواية مؤثرة ، تمثل ظلما فادحا لا مبرر له ان كان للظلم مبرر فاستقل عربة وعاد الي منزله ولم يكن له من شيء يفكر فيه في طريقه الا ظلم الناس بعضهم لبعض وان احدهم لا يخشى اذا ظلم من هو أظلم منه . وازواجبهم ان يتكاتفوا على النهوض بحياتهم وانهم ليحيون بعضهم لبعض وانهم لبعض من بعض فينفصل سرب تفكيره وصوله الي منزله فيغادر العربة ويلج الباب ويتقدم في سكون الى حجرته حتي لا يزعج احداً من النائمين ويخلع ثيابه ويرتمي على فراشه ، ولما ألم به من تعب وتفكير يزور النوم اجفانه لوقته

— ١٩ —

كان والد كمال قد عاد فاستفتى صدقاءه وسألهم عما يفعل في شأن كمال فاجمعوا رأيهم على تغيير وجه حياته حتى تنحاز عنه همومه ولا يبدل وجه حياته تبديلا حاسما إلا اقترانه ممن يشاء لانه بهذا يجد نفسه قد تحول الى انسان مسئول واجبه أن لا يفكر إلا في واجبه الى نفسه والى من يعولهم ومن سيعولهم وقبل كل شيء ففي هذه ملهاة له عن همه الذي يساوره وفيه ارضاء لشيطان شبابه وفيه دفع لكمال الى الجد والعمل

أجمعوا على هذا وأبرم والد كمال أن يجابهه به بنفسه لأن كلا منهما تعود الصراحة الى الآخر في كل شأن، ولما كان أمل الوالد أن يحسم هذا النزاع بين كمال وهمه بأسرع ما يستطيع عزم أن يفاتحه سريعا في الأمر والا يترك الأمور تجرى كما تهوى فتتلف رأس ابنه وتتلف مستقبله

— ٢٠ —

نهض كمال في الصباح فوجد نفسه خامل الجسم راكد الذهن مما أجهد نفسه في أمسه، ثم رأى أنه قد نهض متأخرا

من فراشه فقعد عن الذهاب الي المدرسة هذا اليوم، وجلس في غرفته يذود الأفكار والأفكار تساوره حتى غلبته على أمره فاستسلم لها وأخذ يفكر فيما كان من أمره بالأمس فصمم على أن يقلل من مغادرته المنزل ما استطاع لأن الخروج يقلق عليه رأسه بتفكيره في شؤون الناس وشؤون الناس جميعها مضطربة! ثم صمم ألا يقصد دور التمثيل أو سواها، ثم نظر فوجد نفسه قد ابرم من قبل ألا يصادق أحدا، ثم نظر فوجد نفسه قد مل العمل فذعر حقا وصاح في أعماق نفسه: وماذا بقي لي في الحياة؟

وهنا اضطرب كمال واشتد وقع المحنة عليه لأنه لأول مرة في حياته ابتدأ يفكر في قيمة حياته، وابتدأ يصغرها، وهذه الفكرة خطرة على نفس أمثاله ولكنها مقدرة له مامن ذلك بد في مثل محنته هذه وهاهو ذا قد وصل اليها، وها هو ذا قد اضطرب وعاد فانقلب في فراشه مستلقيا ساهما لا يفكر في شيء حتي لا تعاوده هذه الفكرة الرائعة، أجل لقد ذادت التفكير عنه لوقته، لأنها خطرة، وخطرة حقا

ولم يكن أحد بمنزله يعلم شأنه لانهم ظنوه أن قد قصد

مدرسته منذ صباحه فظل جامدا في فراشه حتى وقت الغداء

-- ٢١ --

نودي الى الغداء فنزل واجما وجلس ساهما واستفسره والده عن أمور فأجاب اجابة فاترة خدرة يريد أن ينقطع بها الحديث ثم سأله عن شؤون المدرسة فعلم انه لم يغادر المنزل يومه فادرك الوالد أن الخمول قد بلغ من ابنه مبلغه فتألم ، إلا أنه لم يشأ أن يدلي اليه بجديد ! لان في غده حتى يرى ما يكون من شأنه في يومه

أما كمال فقد تناول غداءه وقصد غرفته وارتمي في فراشه وظل هذا شأنه مدى يومه ولم يكن في المساء خيرا من هذا ، بل نام دون استذكار أو سواه فقد عاد لا يميل الي شيء من ذلك !

وفي هذا المساء حدث الوالد أصدقاءه أن كمالا قد أصبح ساهما ، جامدا ، محبا للصمت ، متألما من الحديث ، محبا للسكون ، منزعجا من القليل بل من لاشيء ميالا الي النوم والخمول مهملا عمله منقبضا عنه ، حدثهم عن ذلك فزادوا توثيق رأيهم وطلبوا اليه أن يسرع فيخبر كمالا به قبل أن تضر برأسه فكرة خطرة

فاضطرب الوالد وذهب على أن يدلى بالرأى الى كمال فى العدمله من ذلك بد

— ٢٢ —

كان هذا اليوم منكودا من فاتحته وكان مليئا بالقسوة على رأس كمال المسكين ، ذلك الرأس الذي لم تنصفه الليالى
لم ينهض كمال من فراشه فى الصباح بل ظل فاترا خاملا لا يفكر ولا يبدى ولا يعيد، واستمر كذلك حتى عاد والده فعلم أنه لم يغادر المنزل ففهم أن الخمول قد بلغ مقصده فصعد اليه وأيقظه فنهض مضطربا فقال مابك فقال لاشيء فأخذ به ليتناول الغداء ولما انتهيا جلسا وحدهما وكان هذا الحديث.
قال الوالد لقد عودتني يا كمال أن تصارحنى بكل شيء ولا تخفي عنى عظيما ولا تافها قال نعم قال إذا حدثنى عما بك ،قال لا أدرى قال إذاً تخفي عنى شأنك قال لا أخفي شيئا وليس عندى ما أخفيه قال فلم لم تقصد المدرسة قال بنفسي ملل قال فلم لم تروح عن نفسك بالخروج قال بى خمول عن ذلك قال أهذا كل مالديك قال بلي قال أصريح أنت فى كل هذا قال بكل الصراحة قال

فلأ صارحك أنا برأيي فاستمع إلى: يا بني انني اكثر منك خبرة ودربة والمرء لا بد له من الاسترشاد بغيره إن اعجزه الرأى. ولقد حدست بسر لما أنت فيه فاستفسرت بعض اصدقائي ممن هذبهم الزمن وادلى اليهم بعلمه فاوثقوا ماذهبت اليه. ولقد اجمعوا أن لا علاج لك الا بتغيير وجه حياتك قال كمال وكيف ذلك قال بأن تضم إلي نفسك فتاة تختارها وتجتبيها اليك وأنا كفيل بأن تكونا سعيدين وكفيل بأن ينقضى ماحل بك فاضطرب كمال وقال ما فكرت فى ذلك ساعة وماذهبت اليه وانى لاستكثر نفسى فى الحياة فهل أضم إلى سواى، هذا محال قال والده ولكن هذا علاجك قال إنى لأعلم بنفسي ولا يمكن أن يكون فى هذا خير قال ولكن هذا ماأريد فأطعنى قال لا استطيع ياوالدى فبدت فى الرجل حدة القرويين وقال وهل تستمر مستطردا فيما أنت فيه قال كمال لاأدرى قال ولكنى أدرى أنك ستستمرئه وتستمرىء النوم والبطالة قال ماخلقت كسلا خاملا قال ولكنك ستكونه وهذا مالا اقبله فقال كمال وقد ثار رأسه لهذه الكلمة الجامحة ليكن مايمكن أن يكون فثار الوالد وصاح فى وجهه صيحة مزعجة

هذا لا يمكن أن يكون وأنا حجر دون ذلك وستعلم كيف أقود الأمور ثم تركه وانصرف وفي صبيحته قدم اخ كمال الاكبر فما زال بكمال يتلطف اليه ويخفف من المه ويطلب اليه أن يطيع والده في كل أمر دون تفكير ففي ذلك الخير كله

وكانت هذه الكلمات غريبة لدى كمال فصاح باخيه وظنها مؤامرة عليه وصعد إلى غرفته خاثر النفس فارتمي في حال سوآء

— ٢٣ —

ساءت حال كمال وأصبح لاعمل له إلا التفكير الاليم والنوم المضطرب ولم يعد يفكر في دراسة اوسواها وكثيراً ماكان يهب منزعجا ثائراً إذ يتذكر ماكان بينه وبين والده حتي ساء ظنه بالناس جميعا ،وكان يرى انه في محنة كان يجب ان يعامل فيها بكل عطف ولين ولكن والده قد قسا لديه كل القسوة بل أساء اليه. واخوه كان مطمئنا الي ذلك. وهذا مؤلم جدا الألم فبمن يثق كمال بعد ذلك وأى حب يعتبره حقا وماقيمة الحياة ان انتزعنا الحب من القلوب بل ان قتلناه قتلا.

كأنما تذكر كمال القتل بكلمته هذه فثار ثائره ونادى نفسه

نفسه صاتحاوماقيمتي في الحياة وانا لا أستطيع ان اساير الناس على ماهم فيه ولا أستطيع ان أدفعهم عنه ، ألا انني خلقت زائدة في هذا العالم ولا مكان لي فيه ولذا فقد ضاقت بي الحياة .فاضطرب لهذه الفكرة الثائرة فصاح صيحة مزعجة دون ان يدرى او يستطيع قيادة نفسه

ولما افاق وجد اخاه بجانبه فصاح به ان اغرب عني ذكاكم متمالئون على ثم ارتمي في فراشه خائراً

— ومازالت تلك حاله عدة ايام حتي علم والده ان هذه حالة قاسية والسكوت عليها طامة .فيجب ان يزال ما كان بينهما ويجب ان يكون بجانب كمال في محنته وموقفه العصيب

— ٢٤ —

اتخذ الإب وسيلة لما يريد إنسانا وديعاً كان يحبه كمال من قبل ويتعشق حديثه فقصد كمالا وما زال به ينهنه من غضبه ويخفف من حدته ويفهم من كنه محنته .حتي استطاع ان يفهم كمالا انه اخطأ فهم والده [illegible] والده باحث جاد عما يرفع من محنته وعما يقتل همه وانه لا عمل له الآن إلا ذلك،وإنه هو

كبده التي تمشي على الارض وان همهمه.وما زال به كذلك حتي اقنعه بحسن ماكان يريد والده وبطيبة قصده فتأثر كمال واودته نفسه ووعده ان يستغفر والده ساعة يراه وطلب اليه أن يعمل على محو مالدى والده من فكرة مغربه وسر عجيب لمحنته فوعده الرجل بآداء ذلك واخبره انه قدفهم احسن الفهم دابه وأنه سيعمل على علاجه فاطمأن كمال قليلا لانه كان يثق بعقلية هذا الرجل وكان يحبه لحسن تفكيره ودقة آرائه وبعد نظره، وكذا يفعل الحب وكذا يحل من معضلات

وانصرف الرجل مودعا من كمال أجمل وداع تاركا كمالا في حال ارقي وأهدأ

— ٢٥ —

أخذ كمال يفكر بعد ذلك في مشكلة الزواج التي جعلوها هدفا لانظارهم فوجدها تافهة كل التفاهة في حالة كالتي يجتازها ولئن عولج بها سواد فليس معناه أن يعالج هو بها ويتم له الخير منها، أجل أن الرجل يجب أن يكون قادرا علي القيام علي شأن زوجه وكمال في دراسته لم يزل، فكيف يقوم علي شأن سواه،

ثم استطرد فحدث نفسه هذا الحديث:

ولكني لا أنكر أننا نعقد مشكلة الزواج من حيث يجب أن تكون أهون من ذلك. إنها علاقة طبيعية يجب احترامها ولكننا نرانا كل يوم ندفع بأنفسنا عنها، ذلك لانا ضيقنا سبلها وأقمنا العوائق دونها وجعلنا حول الانسان سواه مشكلة كبيرة فنحن الاولي أكثرنا من حاجتنا فضاقت بنا الحياة وإن تكن أهون من ذلك، وهنالك داعية أخرى فنحن الاولي وضعنا نظاما للحياة يصل المرء بها إلى سن متأخرة ولا يزال عاجزا عن عول نفسه بل لا يزال يمهد طريق حياته فاذا مهد الانسان لحياته الى سن الخامسة والعشرين أو الى سن الثلاثين فتى ينعم بحياته ومتى يكون قوة عاملة فى الوجود. أيكون ذلك فى كهولته، اللهم لقد أسأنا تدبير الحياة وعقدناها والحياة سهلة اذا أردناو عقدة اذا شئنا وكلما زدنا اغرابا في أمورها زادت عقدتها شدة وتوثقا وزدنا ضيقا وتألما

كان كمال يناجى نفسه كذلك اذا هو بوالده قد دخل اليه فنهض اليه وحياه اجمل تحية فقال الوالد انى يا بني ما أردت لك

لا الخير والاحل معضلة نزلت بك فخرت فى أمرها ولم اجد لها حلا الا ذاك فان كنت قد اغربت فيه فكم يغرب الطبيب فاستسمحه كمال فقال يابنى ما لى شىء منك ولا أود الى من راحتك

ثم طلب الوالد الى كمال ان يكون أرخي بالا واهدأ نفسا والا يغرب فى تفكيره وتمنى له ان يعود الي سيرته الاولي ثم نهض

— ٢٦ —

كان هذا الذى اتخذ وسيلة سلام بين كمال والده رجلا اريبا فاستطاع ان يدرك محنة كمال ويفهم ان ما ناله كان من اغرابه فى التفكير وان ماجنى عليه ذلك هو حدة ذهنه وقوته على التدقيق فى الامور وصبره على الذهاب مع آرائه فى كل مذهب وتلك معضلة يقع فيها أمثال كمال ويتباين حلها بتباين قوتها لديهم وقوتهم على مقاومتها وما يميلون إليه مما يصلح لأن تدفع به، واذ كان كمال مغرما بكل غريب مولعا بالبحث فقد أراد هذا أن يوجه فكر كمال الي إتجاه آخر من التفكير وأن يدلى اليه بمناظر لم يرها من قبل وأن يهيج نفسه للكتابة حتى ينحاز عنها

اليهم،فاذا ماكان ذلك ودعت هذه الآلام والافكار السوداء كمالا وعاد الي رأيه القويم في الحياة وانقادت له الأمور ، من أجل ذلك رأى هذا الرجل أن يرحل كمال الى بلد آخر يقضي به هذا الصيف فلم يجد بلداً أجمل واكثر ملاءمة من لبنان فأدلى بذلك الي والد كمال وأخبره انه سيصطحبه الي هنالك لانه يريد ان ينعم بالرحيل إلى هذه البلاد الرائقة الجميلة، وأن ينعم بمرافقة كمال وأن يقوم على قتال هذه المحنة التي تعدت عليه وسلبت راحته واطمئنانه وهدوء فكره . فوافقه الاب لوقته وأعجب بفكرته والقي اليه الامر كله لما يعتقد فيه من كمال رأى وحسن تدبير

— ٢٧ —

بعد ان ترك كمالا والده هدأت نفسه قليلا واخذ يتفهم هذه الحالة التي المت به فلم يستطع فهمها ولا اكتناهها فهي حال عجيبة حقا : خمول. وسوء ظن بالناس وماله عهد بذلك. وضيق صدر وقد كان رحبا. تذكر ذلك فألم ثم تذكر أنه الآن احسن حالا فمد يده الي كتاب ليقرأ قليلا فلم تمض به صفحة حتي تولاه الملل فالقي الكتاب وعرف ان الداء لا نزال في ثيابه وان المحنة

لم تفك اطنابها ولكنه ذاد عنه هذا التفكير لينام معتمنا هذه الليلة لعله يكون فى صباحه اكثر نشاطا، وارخى بالا

لك الخير يا كمال . كم ذا تتقلب بين هم واطمئنان وبين راحة وعناء وبين تفكير معتدل وآخر مضطرب !

فلما نهض فى الصباح اراد ان يتخذ هذا اليوم ترويحا لنفسه فاتخذ صحيفته ليتصفحها واذهو برفيق الامس قادم اليه فلما جاءه انس اليه وبعد قليل قال أظنني يا كمال قد اهتديت الى حل جميل لمعضلتك قال فما عساه يكون قال ان نسافر معا الي لبنان الجميل فتشاهد مناظر بديعة وعادات غريبة ويتسع لديك مجال التفكير الهادىء المنتظم وترجع الي نفسك فتعلم خيرها وصالحها .

ففكر كمال قليلا ثم رأى ان هذه تجربة ربما كان الخير فى ادائها فلعل فيها ما يذهب بهمه وينشط قواه ويعيده كمالا الأول فهو لا يحب الفتور ولا يميل الى الخمول

فاتفق ورفيقه ، أجل لقد اتفقا على الرحيل الي لبنان الجميل

— ٢٨ —

أخذ كمال بعد ذلك يحدث نفسه هذا الحديث: إذاً

سأسافر إلي لبنان وسيكون هذا رفيقي، ولكني محب للعزلة،
نعم ولكن الرجل إذا كان دقيق التفكير جميل الرأى استمع
الانسان إليه باغتباط كانما يقرأ كتابا لذيذاً، فلا ضرر من أن
أذهب في رفقته على أن يكون لى الرجوع الى نفسى والعزلة بها
ما أشاء حتي استطيع أن أفكر في هدوء فهذا كل مااحتاج اليه بل
هو كل مايعوزنى الآن ولابد أن رفيقي هذا سيدرك ذلك فهو
رجل حنكة ورأى، أما الرحيل إلى بلد آخر فانى سأجد فيه مجالا
للتفكير فى شأن قوم لم أعاشرهم من قبل وفى الموازنة بين أخلاقهم
وأخلاقنا فانما يظهر الانسان أنه خليق بانسانيته أو غير أهل
لها بأخلاقه ؛ وتظهر البلاد وحقيقتها وسيرتها وتاريخها بما يراه
المرء فيها من أخلاق كونتها الأجيال المختلفة والمحن المتوالية
فالبلاد كالفرد تهذبها الحوادث أو تدعوها الى التمرد على كل
فضيلة وخلق قويم، وهل البلد الا مجتمع أفراد إذاً فسيتجه
فكرى ما من ذلك بد كما يقول رفيقي ولكني لا أدرى أيكون
في ذلك انتزاع همومي وأفكارى المغربة، أم أني اذا رايت هنالك
ما انقم عليه هنا فاني سأنقم فى ساحة أرحب وسيكون همي

أبلغ وستصغر أمامي قيمة كل شيء. أواه...

وهنا يضطرب كمال ويضغط جبينه بكفه خوفا على رأسه أن ينفجر لأنه تذكر قيمة نفسه وتذكر انها ستصغر لديه وقيمة حياته وانها ستهون عليه. واذاً فلا يزال شبح هذه الفكرة الخطرة ماثلا امامه وهو رجل عزم وقد يحدث من هذه الفكرة شر كبير

ثم استيقظ قليلا ونظر نظرة أبعد فقال:

وماذا أخشي من هذه الفكرة؟ أجل أنني إذا هانت لدى حياتي لم أعد أرى معنى لبقائها في الوجود لانه اما أن أفهم الحياة وأقف موقفا مشرفاً في ساحتها واما أن أغادرها وأن الله الذى جعل لنا طريقا واحداً للقدوم الي هذه الحياة جعل لنا مائة طريق للخروج منها تسهيلا لهذا الخروج. ثم جعل أمره لا يتجاوز ثانية واحدة تهوينا له فكأن المرء يقطع ما بين عالمين في مثل هذه الفترة ثم يغدو الي عالم آخر لا يمكن أن يكون مضطربا كهذا ولا يمكن أن يكون أقل منه قيمة ...

ثم انتبه انتباهة قوية وصاح لنفسه، اهذا وفيم افكر، بما هذا.

وفى هذه الاضطرابة كان والده قادما فقال مابك يا كمال
قال لاشيء فلحظ الوالد كل شيء ثم قال: لقد اتفقنا على سفرك
الي لبنان يا كمال لتروح عن نفسك واني أتمني لك السعادة والعود
الحميد، قال كمال سأفعل مايرضيك ياوالدى واؤمل الخير فى
رحلتي، قال اذاً فسنعد كل شيء

—٢٩—

مكث كمال بعد ذلك منتظرا يوم الرحيل إلا أنه كثيراً
ماكان يفرق من القدوم على هذه الرحلة خشية أن تعجز عن إزالة
همه فتكون قاسية العقبي لأن المرء إذا أوقف على أمر اهمية كبيرة
ثم اخطأته لم يعد حيث كان من قبل بل عاد أسوأ حالا مع أنه لم
يخسر شيئا إذ لم يربح شيئا ولكن هذا شأن الآدمية وعلى هذا
جبلت النفوس، فضياع الأمل خسارة وكفي، ولكن كمالا فى
حين آخر كان يطمئن إلي هذه الرحلة فهو لم يغادر مصر قبل
ذلك وهو يسمع الكثير عن لبنان الجميل ويسمع أن الطبيعة قد
وضعته في أحسن مالديها من ثياب وهندام وأنها قد نمقته تنميقا
بديعا، وهو مغرم بالجمال فى أى صورة من صوره. فهو لذلك

مقدر له الاغتباط برحلته

وما زال هذا شأن كمال يشفق ثم يغتبط ويهدأ ثم يثور حتى كان يوم الرحيل فأراد أن يضع همه في زاوية من قلبه وأن ينعم بهذه الرحلة الجميلة وأن يؤمل خيراً. ثم جهد حتى غلف همه بغلاف من الاطمئنان حتى لا ينزعج ذووه لدى رحيله وبعد رحيله وساعدته الاقدار فتم له ما أراد

- ٣٠ -

كانت ليلة الرحيل فزوده والده بالنصائح وملأ بها جعبته فنام مطمئنا . ونهض في الصباح فودع أهله أجمل وداع وودعه الجميع خير وداع وركب القطار هو ورفيقه العزيز وما غربت البلد عن عين كمال حتى شعر أن قلبه قد نقل وكأنما هبط الى اسفل من موضعه، ثم تذكر أن هذه الرواية المؤلمة لم تكن مقدرة له في حياته ، هذه الرواية المؤلمة التي أزعجته وأزعجت ذويه . فما السر فيها وماذا يريد القدر من تمثيلها وبم يريد أن يتمها وهل سيكون قاسيا أم رحيما، تذكر ذلك ثم حدث نفسه كشأنه دائما: اما عني فاني جلد أتحمل كل شيء وأقدر كل شيء ولكن الذى يثقل

قلب المرء بالاسى إنما هو ان يكون مبعث الم لسواه وخير لي أن أجمع هموم الناس جميعا على ان احمل احداً منهم هماً».

ما اطيب قلبك يا كمال وما اجمل تفكيرك . اجل ان الانسان يجب ان يقدم الخير والخير لا سواه لسواه فان لم يستطع فلا اقل من الا يقدم اليهم سوءا . على ان كمالا لم يقدم سوءاً الى احد ولكن مثل نفسه الرقيقة تعزو ما الم بذويه من هم اليه بينما هي ارادة القضاء التي لا يد لكمال فيها ولكن هذا شأن النفوس الطيبة تحمل نفسها كل تبعة ولا تحمل سواها شيئا. بل لا ترضى ان تخليها الناس من تبعة ليحملوها انفسهم

كان كمال مستطرداً في افكاره فنبهه صديقه الي منظر سيمر به القطار فانقطع سيل افكاره وكان مستلذاً اياه. وحداه ذلك إلى ان يفكر فيما سيكون من شأن هذا الرفيق معه فانه ليتألم كثيراً لقطع صفوف افكاره والاعتراض دونها. ثم عاد كمال : فلأم الصفوف ولم يهم كثيراً برؤية المنظر او سواه كأنه نسي ماعاهد نفسه عليه وادرك ذلك رفيقه وما كان له من غرض

الا ان يسر كمالا فلما رأى ان سروره فى التفكير ازمع ان يترك له حرية ذلك . وكذلك أحسن إلي كمال وكفاه مؤونة تنبيهه إلى هذا. وأصبح هذا شأنه معه مدى رحلته إن سأله أجابه وأن رآه مهتما بامر أو منظر حدثه عما يعلم عنه وان رآه فى ساحة التفكير تركه فيها لاهيا. ووجد كمال وهو فى القطار مجالا كبيراً للتفكير فى شؤون الناس فهذا مضطرب فى غير ماداعية للاضطراب وهذا منزعج ولا بد أنه متوقع محنة أو متهيب اياها أو راحل ليعلم كنهها وهذا مغتبط وكأنه مسافر لترويح النفس أو رياضة الجسم .وكان كمال يشاهد فى كل محطة قوما يودعون سواهم وكثيراً مارأى باكين وصارخين لدى وداع عزيز لديهم فيقول فى نفسه ماأرق قلوب المصريين وما أخف عاطفتهم فماذا يعملون لو أنه كان راحلا الي بلد يقطع دونه أراضي وبحاراً . الا أننا فى حاجة لان نكون اكثر احتمالا من ذلك وأصلد قلبا ، وأقدر على متابعة شؤون الحياة ثم تذكر لساعته أنه ضيق بها ولم يتحمل شيئا الي الآن من متاعبها الحقة فخيل اليه أن يحمل نفسه هما وهميا لا حقيقة له وما كاد يتابع

افكاره حتى كانت بورت سعيد قد لاحت فانقذ من هذ التفكير

- ٣١ -

قضي كمال باقي يومه وشطرا من تاليه في بورت سعيد وتلك بلدة جميلة راقت كمالا واعجبته، فسار فى الاصيل على شاطيء البحر الذى يتكيء على هذه المدينة كما يتكيء على مدن أخرى سواها اثناء طريقه الشاق من الشرق الى الغرب، رأى كمال قوة البحر وسلطانه فاصغر من شأن الانسان واستفهه

ثم ما لبث أن ذكر أن هـذا الانسان الذى لا يساوى في جسمه موجة من أمواج هذا البحر الخضم قد ذلل هـذا البحر وركب متنه واستخدمه فيما يشاء فأعجب ثانية بقوة الانسان وعقليته وأدرك أن الله ما وهبه هـذه العقلية إلا ليستكشف بها أسرار الوجود ويقدر بها القدرة الالهية لأنه أقدر على التقدير بعقليته من سواه بقوته ثم ذكر أن هذا البحر إن غضب أو احتد لم تجد معه قوة الانسان شيئا، ثم لم يلبث أن تذكر أنها جمحة

كجمحة الجواد يلقي براكبه أو يقلقله ولكنه لم يزل ذلولا ، إلا أنه أدرك أن واجب الانسان أن يصل بعقليته وكفايته إلى أن يجعل ظهر البحر آمن مركبا من ذلك، فقاده هذا إلى أن يفكر أن أمام العقل مجالا رحبا للعمل وأن كل انسان يجب أن يأخذ حظه من هذا العمل، ثم انتفخ كمال فرحا وهو سائر لأنه ظن أنه أدرك سر الوجود وأدرك أننا إنما خلقنا لنستخدم عقولنا ونسعد بلذة التفكير وأن كل ما سواها تافه ولكنه ذكر أن الذين يفكرون يستعبدهم التفكير حتى يصبحوا آلة حية له يخدمون الغير ولا يشعرون بسعادة ما. ثم ذكر أن المخترعين والكاتبين والمفكرين يحيون منكبين على عملهم متعبين منهكين حين سواهم راغد فهل هؤلاء سعداء وهل هذا هو سر الوجود

عاد كمال فارتاب في الأمر واكتأب ثم أبرم في نفسه أن لا بد للوجود من سر آخر

كل ذلك كان وهو سائر على ساحل البحر والبحر يصخب ولا ينتبه حتى نبهه رفيقه الي تمثال دى لسبس فقال كمال في نفسه هذا رجل خدم العالم ولم يقدم لمصر خيرا وهذا تمثاله مقام

فى أرضها مبجل من بنيها، ثم عاد فقال لا انه لم يسيء الي مصر ولكن مصر هي التى أساءت الي نفسها واطمت خدها وغدا تستطيع ان تمحو أساءتها ثم عاد فقال لا، ان مصر لم تسيء الي نفسها ولكن مركزها من العالم هو الذي رماها بسوء حظها.

ثم انتبه كمال الى ان عدد المصريين المرتاضين دون عدد الأجانب بكثير فأيقظ رفيقه الى ذلك فقال هذا ان الأجانب يقدرون هذا بحكم تربيتهم الأولى وعنايتهم الكبري بصحتهم، وان الأسرة لتخرج بأطفالها وشبابها وشيوخها الى الرياضة بينما لدينا حدود صماء بين هؤلاء ثم ان أطفالنا لا تكاد تفارق منازلها خشية عليها من أن ينالها سوء وشيوخنا لاهم لهم فى ذلك وشباننا بعضه يقدر ذلك وبعضه يفضل اللهو او القعود، وليس هذا شأن جميع المصريين ولكنه شأن الكثيرين منهم قال كمال وهناك أمر سوى هذا فقد رأيت هذه البلدة منقسمة الى شطرين وفيها يتمثل الفرق بين عناية الاجانب بالظواهر واهمال الكثيرين من الوطنيين لها فالمتاجر الاجنبية والمنازل كذلك رشيقة وأنيقة فواجب الوطنيين أن يعرفوا أن لذلك تأثيراً فى

النفوس والاذواق وفى استجلاب المنفعة فقال الرفيق وعلى كل وجه فهذه بلدة حديثة السن وهي ناهضة ومتقدمة تقدما معقولا

ثم القي كمال نظرة إلي القناة فرأي كل سفنها اجنبية، وكل مابها اجنبي فخيل اليه أنها بكليتها اجنبية عنا فوجم وساءل نفسه أيكفي أن نفتح الابواب لمرور رسوانا من العالمين، ان هذه لوظيفة حقيرة ، ألا إن واجبنا ان أخذ بحظنا كبيراً من هذه القناة ثم تذكر أن يوم هذا قريب فاطمأن

كان ذلك ثم عادا إلي المنزل بعد ان شاهدا في المدنية كل ماشاءا مشاهدته

— ٣٢ —

نحن نري إذاً أن فكر كمال قد اتجه الى جهات شتي وعمل فى مجال أرحب وانه لا يعود إلي ساحة أفكاره السوداء إلا فى فترات قليلة وهكذا تتقهقر هذه الافكار شيئا فشيئا ، كما كان يقول رفيقه ، أجل ان رفيقه كان مغتبطاً من ولا نتيجة قيمة وكان يعتقد ان كمالا سيعود اكثر حصافة وأتم دقة واعظم اطمئنانا وأعرف بواجبه وأهدأ تفكيراً ، ولقد احسن القدر الى

كمال بأن هيأ له هذا رفيقا فأنه كان يعرف كيف يوجه فكره دون ان يؤلمه وعلى المرء ان يتخير رفقاءه تخيراً دقيقا لا سيما فى مثل هذه الرحلات التي لو ظهر فيها تباين في الرأي والتفكير لساء اثره وساءت الرحلة بكليتها إلا ان هذا الرفيق كان يعرف ما يلذ لكمال فكان يقدمه له فى غلاف جميل من الايضاح والنصيحة ولم يفت ذلك كمالا فقد ادرك أنه يستطيع ان يستفيد كثيراً من رفيقه هذا لأنه مسلم مجرب ناضج حسن التفكير ولو ان في رفقة كمال انسانا آخر ممن لا يهمهم البحث فى عظم البحر او الفرق بين الناس اومثل هذا او مثل ذلك لآلمه وكان طامة اخرى على رأسه ولكن القضاء قد انصف بأن هيأ له هذا رفيقا

إذاً فالقضاء يعطف على كمال وان يكن من جانب آخر قد أزلف له هذه المحنة ، ولا بد لها من سر

—٣٣—

نهض كمال فى مطلع اليوم التالى نشيطا مبتهجا بعض الا بتهاج فسر رفيقه واشار عليه ان يقصد البحر ليستحما ففي ذلك انعاش

كبير ورياضة جميلة فأبى كمال وكان إباؤه دليلا على أن الخمول
لا يزال فى بردته أو دليلا على انه يكبر هذا المجهود فى سبيل
هذا الاستحمام فقال الرفيق ان على المرء يا كمال أن يخلق من
حياته لذة وسعادة من كل طريق وان ابتدرته لذة فلا يفوتها
ولا يؤجلها فلعلها لا تعود وما الحياة الا انتهاب لذة وسعادة
وهما لا يقصدان انا وانما نحن الاولى نقصدهما وتتمسك بهما
ونأخذ بحقنا منهما فاعجب كمال بهذا الحديث وراقه ثم رأى أن
فى مغالبة المرء للأمواج لذة لا بأس بها وأن اشفاق المرء منها
لذة أخرى ثم سهم لأن فكرة قد لطمته:

فقال فى نفسه ومم اخاف هل تبدل شأنى؟ أيخيفني الموت
وما كان يخيفني من قبل أم تحرجت أن تغلبني الافكار السوداء
فأقدم نفسي هدية بين يدى البحر!

ثم عجب لشأنه ودفع هذه الافكار عنه لأنه اعتزم
مدافعتها منذ اعتزم رحلته وأبرم أن يؤدى هذه الرحلة ولا بد
من ادائها وهاهوذا قد راقه استحمام البحر ولا بد أن يستحم
ولو قته أجاب رفيقه بالقول

فنهضا معا وقصدا البحر ووجد كمال الاسر الاجنبية معنية بهذا الاستحمام آخذة من الرياضة بحقها ومن الحياة أيضا بحقها ووجد الأطفال الزرازير يلاعبون الامواج وهي تداعبهم من حيث كثير من اشباههم من المصريين لايجرءون على شيء من ذلك ثم ذكر اننا فى حاجة كبيرة لان نخدم صحتنا لانها هي ثروتنا الطبيعية التي يجب الاحتفاظ بها ثم لم يلبث ان ذكر انه اشفق منذ قليل من الاستحمام وكادت تجرفه افكاره الى ساحتها لولا ان ناداه صديقه الي الاقتناع بهذا القدر من الاستحمام فلطم الموج رأسه وعاد معه وهو يقول فى نفسه هانحن اولاء نلطم البحر ولا نبالي بعظمه ولكنه نظر نظرة اخرى فقال ولكننا معتدون بحماية الارض لنا امافى داخله فنحن ضعاف واكثر من ضعاف ونخشى ثورانه لان فيه الموت الازرق ثم خرج من البحر دون ان يقف امام كلمة الموت ويحاول نستطيع ان نفهم ان افكاره بدأت فى الاعتدال ولكن ذلك ببطء كبير ولا ندري انتكس ام لا ثم ارتديا ثيابهما وعادا الي الفندق واصطحبا متاعهما وقصدا البحر

استقر بهما المقام في المركب وبعد قليل نهضا لاتفقد أنظام المركب وما حوى فوجدا كل شيء به كامل النظام على كثرة ما به ووجدا الركاب هادئين ليس بينهم من ضجيج على كثرة ما كانوا ورأيا كل شيء في المركب آخذ موضعه باعثا على الاطمئنان ،

وتقلع المركب وأخذت البلاد المصرية تغرب عن الانظار والركاب جميعا محدقون اليها بأنظارهم كأنما يأخذون نظرة طويلة من مصر قبـــــل فراقها ، من مصر بلد الجمال والاعاجيب والدعة ، ثم اختفت بورت سعيد عن الانظار ولم يبق إلا البحر بأفقه العريض الذي لا يجمعه النظر فأجال كمال نظاره في الراكبين فوجدهم ساهمين ولا سيما حديثو العهد بالركوب ، وعندهذا قال له رفيقه لا تطل نظرتك إلي البحر وخير لك أن تسير قليلا حتى لا يأخذك دوار . قال كمال إن الامر شأنه وشأن الارادة وها أنذا قد شئت ألا يحدث لي شيء من ذلك ولا بد ألا يحدث ولقد كان كمال صادقا فيما يقول ، ثم أخذ يتأمل البحر وينظر الي الامواج محتدة ثائرة ممتدة بقوتها

وعددها حتي اذا قاربها المركب حنت رأسها وطأطأتها فامتطاها المركب ثم تركها لسواها فسر كمال بذلك وأعجب بني آدم وعقليتهم وكان البحر هادئا رزينا فتذكر كمال أن هدوء القوى رزانة وهدوء الضعيف استكانة ولم يفت كمالا أن يرى قلة المصريين الراحلين أو يرى جمال الاسرة الاجنبية أطفالها وشبابها وشيوخها راحلة من بلد الى اخرى لتخط لها مكانا آخر فى الحياة والعزم يقودها والارادة تحدوها فسر كمال بذلك ورأى أن المصريين لو اولعوا بالمهاجرة او التنقل من بلاد الي سواها لجنوا من ذلك كثيراً لان قلوبهم سريعة التأثر وعقولهم سريعة الانتقاط ولديهم عاطفة واستيقاظ فكر ، ومن كان كذلك يستطيع ان يستفيد كثيراً من كل شيء غريب عنه ، ثم نظر الي رفيقه فوجده ساهما فسأله فيم تفكر فقال ولم يكن له ان يقول : افكر فى اسرة تركتها خلفي وفيما قدر لى فى رحلتي وفيما قدر لها بعد ذلك فاحتد كمال وقال الا تزال هذه الافكار تساور الكثيرين كلما انتقلوا من مكان الى سواه ولم لا يكون قضاء السوء ومحن الحياة الا فى الانتقال ؟ ، بل

مامعني ان احدنا ان تغيب عن ذويه بضعة ايام اوتغيبت عنه كتبهم حل به تشكك عجيب وهم بليغ ، الا اننا في حاجة لان نكون اجرأ من ذلك واكثر احتمالا . قال ذلك لرفيقه وكان شديداً في قوله لانه دائما شديد في الحق ، فقال رفيقه غدآيا كمال تعرف حب عائل الاسرة لها وما يلاقيه من فرقتها فصمت كمال وشرد فكره، ولم يكن غرض رفيقه الا ان ينبهه الى حب الاسرة لان المحنة التي ألمت بكمال قد اضعفت من حبه لسواه بل من حبه لنفسه الا ان الرفيق لم يصب في هذه المرة المرمي لانه أيقظ كمالا الى ان يفكر في حب الاسرة وسواه وما كان له ان يفكر في ذلك الآن فقال كمال في نفسه : انه يدعوني الى حب الاسرة واني لأرتاب في حبي لنفسي بل يخيل الي اني اعذبها من حيث ادرى ولا ادرى! ثم سهم وكأنه اشفق على نفسه من التفكير وقد عاهدها ان يمتنع عنه ما استطاع ، وكأن رفيقه ادرك ذلك فاراد ان ينحي فكره عنه فقال هل لك في نظرة الى ركاب الدرجة السفلي ، فهاهم اولاء هادئون راضون بمنزلتهم ، ولا يفكر احدهم في انه كان يجب ان يسوى بسواه، وهكذا يجب

ان نحترم الواقع. قال كمال وهذا تقسيم عدل ولا بد ان يكون الناس بعضهم فوق بعض درجات فى كل شأن وماهم بثائرين على ذلك لانه نظام حكيم عادل قال الرفيق ان فى استطاعتهم ان يثوروا على هذا النظام او ينقموا عليه ولكن ذلك لا يجدى عليهم شيئا

أخذا كذلك يتحادثان حتى جن الليل ولبست الطبيعة ثوبها الاسود الرسمي اجلالا لسلطان الليل . وسكن الجميع رهبة واحتراما وانسحبت الشمس عن أريكتها وقام القمر مكانها فكان لهذا كله تأثير جميل فى نفس كمال

ثم ظلا كذلك حتى حان وقت الطعام فنهضا اليه ثم استراحا قليلا ثم نهضا الى فراشهما ونام كمال تلك الليلة نوما هادئا تشبعه بالاحلام اللذيذة عن جمال ماشاهد وجمال ماسيشاهد

-٣٤-

نحن نرى ان كمالا قد رأى فى الوجود مناظر تستحق أن يملأ المرء منها نظره واموراً تستحق ان يشبع منها فكره لان المرء بركوده فى مكان واحد تحت جو واحد بين مناظر

ثابتة لا تتبدل يل التفكير فيها إذ لا يجد بها من جديد وانه اذا لم يجد جميلا يشغله فان فكره سيتجه الي الوجهة الاخري، امن ذلك بد اذا كان من دأب فكره ان يشتغل، اجل سيتجه الى تمحيص الامور الدقيقة وبحثها لان الامور الواضحة قد قتلها معرفة وبحثا وملها كل الملل ، واذا كانت النفس رقيقة حساسة فستتأثر كثيرا بهذا البحث واذا لم تهتد الي نتيجة تطمئن اليها فسيكون هذا طامة على رأسها والواقع ان هذا الباحث المدقق كلما اهتدى الي فكرة قادته الي سواها لانه عميق التفكير والموضوع بعيد المدي أو لا مدى له فلا بد أنه سيصل الى نقطة يحار فيها فيقع في نفسه الشك والشك أليم على النفوس وإذا داخل الشك نفسا في أمر من الامور تسرب منه الى كل أمر وأصبحت حياتها غصة، وهذا ما كان من أمر كمال في بادىء محنته، أما الآن وقد وجد مناظر كثيرة متباينة للفكر مراح ومغدى فيها فهو مطمئن لانه كلما استرسل في فكرة برزت له سواها في منظر آخر فترك هذا لذلك فهو في منجاة عن التعمق وهو بعيد عن كل موقف حرج ،

فلننظر أتستمر به تلك الحال أم ينقلب على عقبيه فان الداء لا يزال كامنا في نفسه والمحنة لا تزال محتوية إياه وان كانت لا تبدو واضحة للعيون

— ٣٥ —

وأصبحا وكان منظر شروق الشمس جميلا فأعجب به كمال اعجابا كبيرا ورأى فيه قدرة الخالق تقرأ آيتها كل عين ثم تذكر أنه لم يخرج يوما واحدا من منزله فى الصباح قاصدا أن يملأ عينيه من هذا المنظر وجماله مع اننا يجب أن نشبع أنظارنا من هذه المناظر ونغذى بها نفوسنا ويجب ان نفهم سر الجمال فى مناظر الطبيعة جميعها، ويجب أن ناخذ منها بحظنا ففي ذلك نوع من السعادة وهل هناك جمال خلو من السعادة وهل كان الولع بالحسان الا اعجابا بجمالهن وانهن خلق متقن وصنع منتظم من صنع يد الله الجميلة ومن ذا الذى لا يعجب بما تصنع يد الله وتنمق

وكانت هذه جديدة فى حياة كمال وما كان له عهد بأن يقف أمام جمال النساء ويبحث كنهه بل كان يمر بذلك مرورا كريما أما

الآن فقد وقف مدققاً ومرت أمامه وهو فى تأمله هذا فتاة منسقة الجسم تنسيقاً جميلاً ، قد نمقتها يد الله فأبدعت ، فتأملها كل التأمل دقيقاً كما يتأمل المرء دمية جميلة وما كان عهده كذلك من قبل بل كان يخجل من مثل ذلك.

ثم شردت به فكرته فقال إن النساء بمخالطتهن للرجال وحديثهن اليهم يبعثن فى الرجال عاطفة رقيقة ويخففن من خشونتهم بقوة رقتهن وجمالهن ؛ أجل إن للجمال قوة وسلطانا ولكنه عاد فتذكر أن المخالطة لا بد لها من الخلق القويم والفضيلة فصاح فى أعماق نفسه ايتها الفضيلة انك كل شيء فى الحياة ثم كأنه شرد فقال ألا تكون الفضيلة هي سر الحياة وتكون حياتنا من أجلها ثم وجد نفسه قد استطرد الى البحث عن سر الحياة فخشي العاقبة فانقطع عن التفكير فجأة فكان لانقطاعه صدمة آلمته لأن فكره كان مندفعاً فأوقفه دفعة واحدة

ثم نهض الى رفيقه ولم يكن قد استيقظ بعد لأن كمالا دعاه الي أن يشاركه فى رؤية منظر شروق الشمس فلم يشأ ولو أنه

نهض لما رأى فى هذا المنظر ما رآه كمال ولا انبعث إلى ما انبعث اليه، ذلك لأننا لا نعود أنفسنا كثيرا الاعجاب بالجمال، مع أن فى هذا الاعجاب لذة كبيرة الا أن الناس ان تلمسوا اللذة لم يريدوا أن يذهبوا بعيداً بل أرادوا أن يضعوا أيديهم فيروها فى قبضتهم فهم يتخطون الاعجاب دائماً، ولهذا كانت حياة اللذة البارزة مؤثرة فى النفوس ومن اجل هذا فمنظر شروق الشمس او غروبها ومنظر الازهار والوانها وتنسيقها ومنظر القمر مترئسا الليل مستعينا بحاشية من النجوم لا تثير من الكثيرين التفاتا كبيرا واعجابا عظيما، مع انه يجب ان تثير ويجب ان يهتموا بها اهتماما كبيرا فانما قد وضعت فى اجمل وضع لتسر هم وتبهج نفوسهم وتملأ انظارهم

وبعد فقد ايقظ كمال رفيقه ثم تناولا طعام الافطار ثم نهضا ليريا منظر القدوم على جبال لبنان البديعة

— ٣٦ —

يرى القادم على بيروت وقد قارب ميناءها والمركب يمر به ويعرض عليه قرى لبنان منظرا من أبدع ما نسقته يد الطبيعة،

يرى جبال لبنان وقد اتكأ صغيرها على كبيرها فبـدا من ذلك منظر عطف جميل ثم يرى الضباب منعقدا فى الصباح حول رءوسها كانما يحاول أن يحفظها من حرارة الشمس فلا يكون من الشمس فى سلطانها وجلالها . إلا أن تنظر إليه نظرة شذراء تمحوه من الوجود فتتبين للناظر الجبال وقد كللت جبينهـا الاشجار وكست جسمها الزروع بكساء سندسي جميل ؛ ثم يرى السحاب يعلوها وكانما كل جبل قد علاه من السحاب مظلة ثم يرى المنازل منتثرة هنا وهناك فى سفوح هذه الجبال وعلي سطوحها ولم يتبين له منها إلا رءوسها الحمراء فيخالها مجموعات من الزهور الحمراء فى وسط الزروع الخضراء ؛ وكلما قارب المركب المياه برزت المنازل شيئا فشيئا من بين الجبال كانما نهضت لتحية القادمين ، وهكذا حتى يصل الناظر الي بيروت وقد سباه هـذا المنظر البديع

— ٣٧ —

رأى كمال هذا المنظر فملك عليه نفسه وأعجب به اعجابا كبيرا ورأى فى نفسه أن فى العالم أمورا كثيرة تستحق الاعجاب

ومثل كمال اذا رأى ذلك كان له تأثير حسن فى نفسه ، رأى ذالك فقدره حق تقـديره حتى أخـذه المنظر عن نفسه فلم يفكر الا فيه حتي نزلا بيروت وقصدا الفندق . ولقد اعجبه من آل بيروت هدوء اخلاقهم وسكون طبعهم وعنايتهم بالغرباء

ثم قضيا فيها عدة ايام وانتهيا الي الاهتداء الى القرية التي يحسن بهما المقام فيها من رجال لبنان ذلك انهما ارادا ان يقصدا بلدة هادئة تمام الهدوء قد حبتها الطبيعة بجو جميل ومنظر جميل وقوم لطيفي الاخلاق ، فقصداها واعتزما المقام بها وهنا بدأت حياة جميلة لكمال

— ٣٨ —

قدما الي هذه القرية واستقر بهما المقام فى منزل مشرف على الجبل يري الناظر منه منازل المدينة وقد انتثرت على سفح الجبل والاشجار من حولها كانها قامت لتحرسها والارض قد ازينت بثوبها الاخضر الجميل كانما تستقبل ضيوفها من المصطافين جلس كمال وحده يتامل هذا المنظر البديع فرأى ان

الطبيعة تلبس اجمل ثيابها وتتحلى باجمل حليها وتتعطر باعطر روائحها ومع هذا فلا تعجب بني آدم وتطاربهم فوجد خطا ان ينقم الانسان على الحياة ، فمن شاء فليتم على وجه من وجوهها اخطا الانسان فهمه او تدبيره او الانتفاع به ، هذا ما يجب ان يكون اماما سواه فهراء وكأنما عز عليه أن يكون تفكيره الاول هراء فقال فى نفسه ولكني لم أر بعد أخلاق هؤلاء القوم فلعلهم ليسوا فى جمال بلادهم وعذوبتها ولكن هذا بعيد فلا يمكن أن يعيش بين هذه المناظر وهذا التنسيق البديع قوم مضطربو الاخلاق فاقل ما يمكن أن يرى لديهم الانتظام فى كل شيء والانتظام اذا شمل انسانا شمل أخلاقه وطباعه وأعماله وكان هذا الانسان جميلا فى كل ظاهرة من ظواهره ، ثم تذكر كمال مصر وتأثير جوها الجميل فى خلق شعب وديع مسالم ثم تذكر أن كل خلق منحرف تعثر عليه فى نواحي مصر خلق شاذ لم تنبته أرضها ولم يلده تاريخها وأن خيل الي البعض أن خلائق المصريين قابلة للتبدل السريع فما نظر الا الى الاخلاق الشاذة أما الاخلاق التى كونتها الطبيعة فهي ثابتة ثبوت مصر فى الوجود ، فوداعة المصرى،

وسهولة طبعه وكرم نفسه لا ينكرها منكر ولا يعدو عليها عاد وكل ماسوي ذلك فعارض يمكن محوه ولا بد أن المستقبل مثبت ذلك

ثم استيقظ كمال مما هو منساب فيه من أفكاره بنداء صديقه اليه أن يرى نظام المنزل وما حوى فنهض ورأى ماسره ، أجل أن نظام المنزل اللبنانى على بساطته يدل على أن تنسيق الطبيعة قد علمهم التنسيق فأنت لا ترى في منزل من منازل لبنان صغر أو كبر ، سواء كان منزل مثرين أو مملقين الا تمام النظام واستكمال العدة . فأعجب كمال بذلك ورأى من ارباب المنزل تمهيداً لكل شأن من شئونه هو ورفيقه فزاد اعجابا بهم وبكرم طباعهم

ثم خرج كمال ورفيقه ليتبينا نظام القرية ويتعرفا اخلاق آلها وليعلما مالا يعلمان من امرها ، ثم عادا فى المساء واستقرا على ان يقوما بمثل هذه الرياضة اصيل كل يوم اما كمال فقد اقر فى نفسه ان يتريض فى صباح كل يوم بين هذه الربوع الجميلة ويستقر فى مكان يتخذه مستظلا له

واستمر بهما هذا النظام

— ٣٩ —

بعد أن أقام كمال أسبوعا بين ربوع لبنان استطاع أن يحكم على أهل قريته ويستدل بها على كثير من أخلاق سواها ؛ ولقد رأى أخلاقا بارزة بها لا يخطئها النظر ، فهناك أربعة خصال ثابتة لا يجحدها أكبر الجاحدين ، ذ ألفة أهلها حتى تتكاد تعد نفسك منهم بعد يوم تقيمه بينهم ودماثة أخلاقهم ؛ تلك الدماثة التي ينشدها الاخلاقيون في كل مكان ولا يكادون يرونها ورضاؤهم بالعيش نعم أو خشن فليس فيهم ناقم ولا مضطرب في حياته واتحاد قلوبهم حتى لا تكاد ترى بينهم ما يسمي بالحقد والشقاق والنزاع فهذا مالا يكادون يعرفونه ، ولهذا فهم آمنون مطمئنون في بلادهم الآمنة المطمئنة

تلك هي الاخلاق البارزة التى شاهدها كمال في تلك القرية فان جمعنا إليها الحياة الطبيعية التي يحيونها ، أجل تلك الحياة المطمئنة الهادئة الراضية التى لا يشوبها ملاه ولا سواها حكمنا بانهم قوم سعداء واجبهم أن يحتفظوا بما لديهم وألا يجعلوا لحياة المدنية سبيلا إليهم ، تلك التى كاد المصطافون

يدفعونهم إليها

تلك أخلاق مشتركة بين رجال القرية ونسائها أما الاخلاق الممتازة بها رجالهم فلين الطبع وحب المنزل والقيام على حاجته خير قيام وتهوين الامور لدرجة قد يسميها البعض ضعفا أو استكانة والعمل الهادىء المطمئن.

أما المرأة فعارفة حق منزلها خير معرفة قائمة على شؤونه قياما حسنا ، عارفة حق زوجها وآلها مربية بنتها تربية راقية وان تكن أسرتها محافظة متأخرة مانعة الحجاب بينها وبين آل قريتها حتى ليمر الرجل منهم بمنزل الآخر ليحيى كل أفراده أو يجالسهم فى غير ما نظرة منحرفة او غرض سوء.

والمرأة في تلك القرية محتفظة بعفتها كل الاحتفاظ والفتاة تخجل ان تلقي بنظرها الي غريب بل انهم يعدون ذلك حطة فالمرأة لديهم مختلطة بالرجل فى جامعة واحدة ، الفضيلة مختلطة بالجميع

ولم ير كمال من مثالبهم الا السذاجة ان عدت السذاجة عند قوم مثلبة والا تهوينهم لكل شيء ان عد ذلك عيبا والا ضعف تعليمهم وبقاءهم لا يتقدمون ولا يتأخرون كانما ارتضوا

مقعدهم من الوجـود وكفي ، والاخمولهم عن المدنية والرقي
ولعل هذا عند قوم مثلبة

وذلك ما رآه كمال من اخلاق القرية وذلك ما اعجب به
وكان له فيه مجال رحب للتفكير

— ٤٠ —

اتخذها كمال عادة ان يذهب في صباح كل يوم في رياضة
صغيرة فيسير متنقلا بين الكروم الجميلة تارة وبين اشجار التوت
واشجار الصنوبر تارة اخرى حتي يستقر به المقـام عند شجرة
منعزلة منحرفة عن الطريق مدلاة الفروع مشتبكتها ، قد تكون
منها مستظل جميل يرى كمال به راحة بعد عناء المسير ان كان
في مثل هذا المسير عناء ويري ان هذا المستظل يوصله الى مروج
التفكير الهادىء لانه لاحاجة به الا الي هذا التفكير ، اجل هذا
التفـكير الذي سيقنعه ان على المرء واجبا في الحياة يحتمه عليه
مجرد وجوده فيها فاذا دخـل الانسان ساحـة الحياة لم يعد له
حرية الخروج منها الا إذا انتهت معركتها وإلا اصبحت فوضي
لا نظام لها ودار هزل لا دار جد ، إن غريزيا في الانسان ان

يتشبث بحياته وإذاً فالطبيعة تريد كل امرىء ان يتشبث بحياته
لان الغزيرة جزء من الطبيعة والطبيعة لا تريد إلا نظام العالم
وإذا فلا يتم هذا النظام الا بالتشبث بالحياة وكل ماسوى ذلك
فهو شاذ وكل ماسواه أفكار مضطربة لا تهدى الى شيء

هذا مايوصل اليه التفكير الهادىء . اجل وسيعلم كمال
ان الصغير يعسر عليه ان يفهم الكبير حتى اننا لنقف كثيراً
مشدوهين أمام عقلية عظيم من العظماء وأمام اعماله الخارقة
العجيبة . ذلك لأن دائرة عقولنا اضيق من دائرة عقله وكلما
درنا حول دائرة عقولنا لا نستطيع ان نأتي إلى نقطة نتصل
فيها بدائرة عقله فاذا كنا لا نستطيع ان نفهم أعمال انسان مثلنا
لضيق عقولنا فهل نستطيع ان نفهم اعمال القوة الالهية العظيمة

هذا ما يفهمه التفكير الهادىء ولكن كمالا لم يصل بعد الي
هذه النتيجة وكل ما وصل اليه اعتدال افكاره بعض الشيء
فاصبح يهزأ بفكرة أن لا قيمة لحياته بل اصبح يقدرها ويعتقد
ان كل انسان فى الحياة قوة ، وان كل انسان يستطيع أن يعمل

عملا هاثلا في العالم ولم يسوؤه من أخلاق هذه القرية إلا ضيق عمل آلها حتى أن أحدهم ليكاد يكون خلواً من العمل منتظراً ماتنتج الأرض التي تسقيها الأمطار دون عناء ولا مشقة . أو منتظراً ما ينتج المنزل والنشيط العامل منهم مشتغل بتجارة ضئيلة لا تتعدى قريته فالحياة في منتهى السذاجة وبعدها لا تفكير ولا سواه ، وهذا مالا يلذ لكمال لأنه يريد من الفكر الانساني أن يكون قوة عاملة منتجة إنتاجا يتفق مع قيمة الانسانية والعقلية لأنه ليس الغرض أن نعيش وإنما أن نعيش عيشة طيبة ذات أثر كبير ، أما مجرد الحياة فلا قيمة لها لأننا يمكن أن نؤديها بأقل مجهود ،

إذاً فسذاجة هولاء القوم وركود تفكيرهم لم يرق كمالا وقاده إلى هذه الفكرة التي أكبر بها حياته بعدما كان يصغرها ، وهذه خطوة كبيرة لأنه إذا أكبرها تشبث بها وهذا هو كل شيء ، إذاً فهذه نتيجة جميلة وإن لم تكن حاسمة

— ٤١ —

كان لجمال المناظر الطبيعية التي يشرف عليها كمال تأثير

فى نفسه فأنه تذكر أن هذه النباتات جميعها وهذه الاشجار الجميلة والزهور البهيجة لا يمكن أن تكون عالما مستقلا يحيا ويموت وانما قد خلقت لسواها وليس جديرا بأن يكون سواها الا الانسان فهي انما خلقت ليلتذ بها ويتغذى وليتأثر تأثرا عميقا بجمالها ورونقها ، لأنه لا يمكن أن يكون كل الغرض منها التغذى بأثمارها لأن هناك أشجاراً وأزهاراً لا تتغذى منها الا النفس بالانتعاش وبالاطمئنان اليها ، اذاً فكمال يعتقد أن كل منظر تقع عليه العين لا بد له من تأثير فى النفس ويختلف التأثير باختلاف رقة النفوس وجمودها . واذا نظرنا وجدنا أن نفسا كنفس كمال لا بد أنها قد تأثرت تأثراً جميلا بهذا الجمال وأصبحت تقدره أكثر من سابق عهدها وهذه خطوة كبيرة فى حياة كمال لأنه سيؤخذ بهذا الجمال وسيتجه اليه فكره وأنواع الجمال كثيرة ولا بد أنه سيتجه الى تعشقها أو تعشق شيء منها والولع به ، اذاً فكمال قد مهد لأنه يولع بشيء من الجمال واذا أصبح كمال كذلك فهذه خطوة رائقة لانه اذا ولع بشيء ولعا عظيما فقد ألهاه هذ الهاء . كبيراً عن تفكيره الأول ، ذلك

التفكير العقيم الذى لا يوصل الي شيء مهما كان دقيقا إذا ألهى عنه فهذا كل ما يتمنى لـكمال، فلننظر أى نوع من الجمال سيولع به

— ٤٧ —

كان كمال جالسا فى خميلته الصغيرة إذا صح أن نسميها كذلك وكان يفكر فى هدوء وسكينة فيما حوله من الجمال اذاهو بفتاة قروية قدمرت أمامه منسربة فى طريقها لا تنظر يمينا ولا شمالا وفى يدها سلة صغيرة لا بد أن ستأتى بشيء فيها ثم تكر راجعة

مرت الفتاة أمام كمال فلم يفكر فى شخصها وإنما فى جمال الفتيات عامة وفيما يسمع ويقرأ عن تأثير جمالهن وآيات سحرهن ثم ساءل نفسه: هل لنا أن ننظر نظرا بريئا اليهن كما ننظر إلي منظر جميل آخر أم ليس لنا ذلك فرأى إن النظرة إن تكن مؤلمة للفتاة فيجب الاقلاع عنها لأنها يجب أن تكون راضية مطمئنة إليها ثم نظر نظرة أبعد فقال وأى فتاة لا تحب أن يعجب بها الناظرون، إن أكبر هم للفتاة أن يطريها كل انسان كائنا من كان لأن هذه غريزة فى نفسها ولانها ماخلقت وجملت الا لكي تقع من نفس انسان أوسواه اذن فالنظرة البريئة ليس فيها

من سوء ولكن من يكفل لنا أن تكون النظرة بريئة وألا تتعداها الى العبث الكلامي أو سواه مما يضيع معنى الاعجاب بالجمال ومما لا يتفق واياه لأن جمال الزهرة أن تنظر اليها أو تشتمها فحسب فاذا تجرأت على العبث بها لا تلبث أن تنتحر في يدك أو بين أصابعك لوقتها واذا كنا لا نستطيع أن نضع حداً للنظرة فلا يمكن أن تحلها النفس الحساسة واذاً فخطأ مني أن تأملت هذه الفتاة عند قدومها ولا مني لأن أتأملها في عودتها حتى لا أكلم عاطفتها والفتاة القروية يخجلها النظر اليها

ثم اقتنع كمال بذلك ونهض فعاد إلى منزله

— ٤٣ —

عاد كمال إلى منزله مطمئنا إلى ما يجنيه من رياضة الصباح. وشعر أن الجسم ضيف المرء وواجبه أن يكرمه ثم شعر أن النفس والجسم شريكان ان سعي الانسان إلى راحة أحدهما مهملا الآخر احتج هذا على هذه الاهانة فاضطربت النفس أو اعتل الجسم ثم ذكر أن الجسم وديعة لدي الانسان وأن [illegible] ألا يعبث به ثم ذكر أنه أكثر من وديعة وأنه يجب رياضته وتقويته وتلذذه

ليقوم لنا بـ ... كبيرة وليؤدي واجبه تمام الاداء وإلا أضرب عن عمله أو أدى فتور وملل ثم شعر كمال أنه كان مقصراً من قبل كل التقصير في ... صحته ولعل هذا هو سبب محنته، ثم استوقفته هذه الكلمة ... لأنه أكبر نفسه عن ان يكون شيء من ذلك سر اضطرابه ثم سأل نفسه إذاً ما كان سر اضطرابي ؟ فلم يجد سراً فكاد ينزعج لولا ان انقذه وصوله في عودته الى منزله ومقابلته لرفيقه وجلوسه اليه كالمتحصن به من هذه الافكار السوداء

قال الرفيق لعل رياضة الصباح جميلة قال كمال جميلة ومنعشه قال وذهاب القرويين الى حقولهم بديع قال أجل بديع ثم سهم ... ذلك لأنه ذكر مرور الفتاة القروية وما ذكره بها الا كلمة رفيقه فنهض من مكانه ليراوغ تفكيره واضطرابه وكأنما شعر ان لديه حاجة للرجوع الى نفسه

نهض كمال فجلس وحده ثم تذكر الفتاة فقال وماشأني بها فلم يجد شأناً فاقنع نفسه بقوة عزمه واطمأن

خرجا للرياضة في اصيل هذا اليوم كشأنهما وكانت تمر

بها أسراب الفتيات الذاهبات فى رياضتهن فكان عجيبا من كمال أن يتفقد وجود الفتاة بينهن دون ان يذكر انه لا شأن له بها! وكلما مر سرب منهن فنظر فلم يجدها بينهن وجم كمن فقد شيئا ثمينا ، الا انه اخذ يفكر فى حياة الفتاة القروية فهى فى منزلها مجدة قائمة بشأنها فى نظام واتقان ودقة وهى فى الخارج مهتمة برياضتها عارفة لحق جسمها عليها ولحقها فى ان تغذى نفسها من جمال قريتها فأى فتاة تكون هذه الفتاة ثم أحس كمال أنها لا بد رقيقة العاطفة لان النساء اكثر تأثراً بالمناظر الاخاذة من سواهن ثم قطع سيل افكاره مرور سرب من الغوانى فنظر وتفقد الفتاة دون شعور ولا تحرج فلم يرها فأدرك الامر واستيقظ الي نفسه فقال وماشأني بها فلم يجد شانا فاطمأن ومر سرب سواه فلم يتفقدها بينه فزاد اطمئنانه لانه قهر نفسه مع انه فى تحرجه من النظر كان اكثر اهتماما منه بالنظر ولكنه اقنع نفسه وكفى

ثم انتهت رياضتهما وعادا

— ٤٥ —

نهض كمال فى الصباح واخذ يسائل نفسه ايذهب الي رياضته

مبكراً كما ذهب الامس أم ينتظر بمنزله ليطل منه على الشمس وهي تشرق على الجبل المشرف عليه وليرى كم يكون جميلا أن ينجاب الضباب منهزما أمام الشمس متخذا اسوته الظلام الذي قد انهزم امامها من قبله ، التفت كمال لنفسه وقال لو ذهبت مبكراً لمرت أمامي الفتاة القروية كما كان شأنها بالامس ولو تأخرت لما شاهدتها ثم عاد إلي نفسه صائحا بعزمه مستفيضا به مسائلا مرة أخرى ماشأن هذه الفتاة به وما اهتمامه بأمرها فلم يجد شأنا ولا داعية ، فرأى من العزم ان يذهب مبكرا فان مرت الفتاة فما هو بآخذ منها نظرة وفي ذلك اقناع كبير لعزمه وانهزام للتفكير فيها

فلو قته قصد خميلته وجلس بها هادئاً لا يمر بفكره شيء فعجب لركود ذهنه في هذا اليوم والحقيقة أنه لم يكن خاليا فكره ويحاكه عليه الامر ور الفتاة وانه سيعمل على ألا يهتم به ولقد كان هازلا بتفكيره هذا ، لان اهتمامه بألا يراها أقوى أثراً في نفسه من ان يراها فهو كان يسخر من هذه العاطفة الجديدة وهي كانت تسخر به ، وبينما هو في هذا إذ لاح الفتاة

قادمة فردنظره الا انه قد رآها و كفى وظل مغضيا نظره حتى مرت، ولكنه في اغضائه كان يفكر في هذه البساطة القرويه وفي هذا الجمال المادي الجذاب. أجل ان الفتاة كانت جذابه النفس كال فحسب ولكنها عاديه لسوء لانها ليست من الجمال على ثروة ولم ينتظر كمال طويلا بل تحامل على نفسه ومزق صفحة تفكيره وعاد من حيث اتي

— ٤٦ —

كان هذا جديد لدى كمال وكل جديد يبعث العجب أو يدفع الاضطراب و كذلك كان شأن كمال فقد كان يعجب ويضطرب لتذكره شأن هذه الفتاة وله أن يفعل

والنفس الانسانية عجيبة في شؤونها وتطوراتها و كلما انقلبت من مرحلة الي سواها من مراحل الحياة كان لها آمال جديدة وشعور جديد دون أن تعرف مأتى ذلك أو تنتبه اليه انتباهاً كبيراً ، وكان كمال الآن في مرحلة الطموح ، للشباب بطبيعته ، يحب الجمال ويعجب به ولكن المحنة التي مرت بكمال والانضاج السريع لفكرته والمناظر الجميلة التي مرت به وتفكيره

فيها وفى سواها من ألوان الإبداع والجمال كان داعية لأن يزجي به فى ساحة الطموح

ولكن هل كان كمال يفكر فى ان يكون له شأن مع فتاة مثل هذه أو كان يطمح إلى الركون إلى شيء من ذلك ، لا فانه لم يفكر فى هذا حتى الساعة ولم يقدره. والنفس لا تتبدل دفعة واحدة بل إنه ليؤخذ بها فى الحياة من مرحلة إلى مرحلة فى هدوء وسكون وهي ساهمة صامتة حتي تجد نفسها فى منزلة جديدة فتعجب ثم لا تلبث أن تنقاد للواقع وتأنس لما أدركها.

وكذلك نزل كمال بساحة جديدة لا عهد له بها ولا بد أن يكيف نفسه بكيف يلائمها وكمال قادر على ذلك ولكنه ليس يسيراً أن تلبس نفسه حالة كهذه فلننظر هل يقودها أم تقوده أم ما يكون شأنه معها

— ٤٧ —

لم يشأ كمال أن يقصد خميلته فى اليوم التالى لانه ارتاب فى قوة عزيمته بل ارتاب فى نفسه فاراد أن يصنع ماهو أقوى فلم يذهب إلى خميلته وكان قاسيا على نفسه ظالما لها، فلما استيقظ

رفيقه سأله ماله لم يذهب في رياضته فحاك لذلك عذراً، فلما انتهى من شئون الصباح جلس وحده في حجرته واجماً ثم فكر في هذا الشأن الذي اضطره لان يحوك عذراً لصديقه الذي منعه عن رياضته فعجب لشأنه، فليس من الجميل أن يختلق المرء وليس من الجميل مطلقاً أن يأتي ذلك انسان له نفس كنفس كمال ولئن اختلق الناس فلم يفكروا بعد اختلاقهم فان كمالا سيتألم لاختلاقه كل الالم وكذلك تألم وأخذ يبحث عن داعية ذلك، فمر بفكره شأن الفتاة القروية فاهمله بالرغم عنه وجلس مكتئباً طول يومه لا يهتدى لما هو فيه الي سر وكان يري في الاكتئاب احتجاجا على نفسه وتصغيراً لها

وكان بين فترة وأخرى يذكر الفتاة ويكاد يسترسل في ذكر محاسنها وما تركته في نفسه من أثر فلا يلبث أن يحتد على نفسه لاهتمامه بهذا الشأن ولعنايته بأمر فتاة لا علاقة لها به ولا رابطة تربطه بها، ثم يذيد هذه الفكرة بعيداً فلا تلبث ان تعاوده

ظل كذلك مدى يومه يهز أثارة بنفسه ويغضب تارة

من عبثها ويهاودها تارة فى تفكيرها حتى اعتزم أن يعاود شأنه الاول من رياضته وليكن مايمكن أن يكون؟

ثم هبت عليه فكرة خففت من حدته فساءل نفسه «هل يمكن ان تكون الفتاة مفكرة فى أمره أم هو وحده الذى يشغله امرها، وكيف يمكن أن يعلم ذلك» فلم يجد وسيلة فترك ذلك لليل والنهار ليثبتاه ثم اعتزم ان يعود سيرته الاولى الين طبعا مما كان وأرفق بنفسه؟

—٤٨—

كانت ايفا فتاة قروية على خلق قويم وكانت على شيء قليل من الجمال الا انها كانت براقة العينين ساهمة المنظر. ذات وجه هادىء صامت يخال الناظر أن خلفه سداً أوهما وكانت تميل الى العزلة ولا تخرج من منزلها إلا فى الصباح قاصدة حقلها والسلة فى يمينها لتأتي بشىء من الفاكهة أو سواها ثم تكر راجعة وهى لا تعرف رياضة الاصيل ولا تختلط بفتيات الحي ولا هم لها فى شيء من ذلك، وكانت راضية عن حياتها وهدوئها مستسلمة لليالى وكانت من قبل تذهب الى مدرسة تقصدها صغيرات القرية

فتعلمت بعض الشيء ثم هجرت الدراسة إلا أن تفكيرها كان سائغا فاتخذت من أفكارها وأعمالها رفيقات لها في حياتها الساذجة كانما كانت تحسب دون أن تستطيع التعبير أن هذه الحياة طريق يجب قطعه بأهون الوسائل مصطحبا رفقاء أو مصطحبا نفسك، وخير لك أن تصطحب نفسك وحدها حتى لا يزعجك مزعج في طريقك

كان ذلك شأن إيفا وكانت تمر في طريقها قدما فلا تلقي بنظرتها يمينا ولا شمالا كأنها من عالم غير هذا أو كان شأن هذه الحياة وهذا الناس لا يهمها وماذا يهم الانسان من شأن الناس؟ لا شيء؟ انما هي عادة جبل الناس عليها أن يهتم كل بحادث الآخر وما يعن له، وهذا تدخل معيب كما كانت تراه إيفا أو كما تعودت سواه وذ..أت عليه، أجل إيفا التي كانت لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها إلا أنها ناضجة الفكر بقدر ما يمكن أن ينضج فكر فتاة مثلها تحيا حياة ساذجة كحياتها

كان ذلك شأن إيفا فلما مرت بكمال نظرته فاذا هو فتى غريب عن هذه المحلة إلا أنها فكرت في جلسته وحده هكذا فهل

هو محب للعزلة والركون إلي نفسه وكانما لحظت ان هناك اتفاقا بين أخلاقها وأخلاقه ولم تستطع أن تمنع نفسها عن التفكير مع خجلها أمام نفسها من الاستطراد فيه إلا أنها ساءلت نفسها عن إغضاءة كمال إذ رآها فهل كان ذلك أدبا وحياء أم هناك داعية أخرى، ثم اكتأبت إيفا المسكينة لانها ذكرت ان كمالا ربما كان مغضيا لفقرها في الجمال وفي ذلك هم كبير لأمثالها لان ثروة الفتاة أن تقع من النفوس موقعا جميلا، والفتاة لا تقدر ما فيها من جاذبية لسواها الا بذلك ،إلا أن إيفا سرعان ما عادت الى نفسها فهدأتها وطمأنتها بأن هذا فتى غريب ولا بد انه ينظر إلى الجمال كمثل من امثال البلد الذى انبته، ثم عادت الى نفسها مرة اخرى ومحت كل هذا وأقرت في نفسها أنه أغضى حياء وأدبا وأنه فتى يستحق الاعجاب وكفي ثم اقنعت نفسها بذلك وبذلك وحده ــ وكذلك الفتيات الساذجات تهون الامر على نفسها وكذلك شأن العقول الهادئة جميعا فاذا احتمل الأمر احتمالين احدهما يطرب النفس وثانيهما يزعجها فليس عندها إلا اختيار ما يطرب

وكذلك عادت إيفا إلي نفسها مقتنعة بذلك وكفي

— ٤٩ —

مرت إيفا فى اليوم التالي وقد تغيب كمال فأهمها تغيبه ولم تفكر لماذا أهمها ذلك ولا ما شأنها وشأن هذا الفتى لأنها هكذا تنقاد للواقع فتفكيرها يقودها الى شأن فلتسر معه ولا تزعج نفسها فليس فى الحياة أمر يستحق أن يزعج المرء نفسه من أجله فلما مرت ولم تجد كمالا سارت الى حقلها منحرفة الحال مؤملة أن تراه فى عودتها فلما عادت ولم تجده تألمت حقا وخشيت الامر لأنه ربما انقطع أملها فى عودته الى هذا المكان بل لعله هجر القرية جميعها فاهتمت إيفا وعادت الى منزلها كأنها فقدت ثمينا ولم يطب لها مقام فى هذا اليوم ولم يهدأ لها مضجع فى ليله وكانت مستغرقة فى التفكير دون ان تسأل نفسها لم تفكر وكانت هذه حالة جديدة لا عهد لها بها ولكنها لم تستوقفها لحظة ولم تطاردها ساعة فأقامت يومها مفكرة وليلها مؤرقة حتى كان الصباح فأملت فيه خيراً ثم نهضت فنظرت الى أفق هذا اليوم الجديد نظرة استعطاف رقيق لم تلبث أن استرجعتها ثم حملت سلتها وسارت مبكرة

— ٥٠ —

لله انت ياإيفا ـ أنت طيبة القلب كريمة النفس هادئة التفكير زهرة فى أرض هذا العالم المليئة بالاشواك فان كانت الطبيعة قد أخذت شيئا من جمالك فقد اعطتك كثيراً من جمال النفس والطبيعة عادلة تأخذ من جانب لتعطي من جانب آخر فتمنع الفقير المال وتعطيه القناعة وتعطي الغني المال وبجانبه الطمع أو سواه حتى يكون دائما مفتقراً ، هذا نظام عدل ياإيفا وكفاك انك جذابة فمنظرك الساكن الهادىء قد وهبك جمالا وان فى عينيك البراقتين سحرا وان كان لا يفهمه الكثيرون . اجل ان الفتى العادى لا يقدر ما فيك من جمال ولكن فى مثل كمال يستطيع تقديره ، فأنت جذابة وتريدين من يبهجك باعجابه بك إن كان ذلك كل ماتريدينه ياايفا وكان ذلك جديدا فى حياتك فاطربي نفسا فقد اعجب بك كمال واهمه أمرك، وشغله هدوء نفسك الذى أسبغ كساء من رقيق على وجهك ومثل كمال ذو نفس حساسة لا يخطئها التفكير في أمر كهذا .

ان الفتاة لترى وكأنها العوبة طروبة فلم كانت ايفا هادئة

ساهمة وإن الفتاة لتجذب بأنواع من الجمال اتفق الناس على تفضيلها فلم كانت إيفا جذابة بدونها ، هذا ما يريد كمال التفكير فيه ولكنه يمنع نفسه قهرا لانه يظن أن شأن هذه الفتاة لا يعنيه، فلننظر ما يكون من شأن إيفا وكمال :

— ٥١ —

كان كمال فتى ممتلىء الجسم قصير القامة إلا أن شكله يدفع من يراه إلي احترامه وإلي تقدير ذلك الرأس الكبير الذي يعلو كتفه لان نظرته قوية ومعالم وجهه منسقة منتظمة وقد ضمت شفتاه ضمة حزم شديد واجتمعت من أركان وجهه هيئة رزانة لا بأس بها ونزلت به هذه المحنة فلم تصنع به شيئا اكثر من أن كست وجهه ثوب هم رقيق وكلما انجابت عنه الافكار رق هذا الثوب حتى لا يكاد يراه الناظر إلا ساعة ثوران كمال أو غضبه

ولم يكن كمال وسيما ولا دميما وإنما من رآه حكم بأنه كان كريما كريم السجايا وكريم النفس فلما رأته ايفا وقع من نفسها لان مجموعة هيئته تقع من نفس فتاة مثلها وكفى ولا يستطيع المرء

إن يرسم ما وجدته فيه من ملائم لأن هذا جل عن أن يرسم ولا تستطيع أنت أن تقول إنى أحب هذه الزهرة لأنها حمراء أو زرقاء أو ذات عبير لأنك تجعلها تافهة حقا وإنما تقول أميل اليها لأنها وقعت من نفسى فتكون بذلك معطيا لها ما تستحق من تقدير

أما إيفا فكانت معتدلة القامة أو نحيفتها معتدلة الطول قد رسم جسمها بانتظام إلا أن وجهها لا يتفق وقواعد الجمال إن كان للجمال قواعد وجسمها النحيف لا يملأ العيون ولكنها فى كليتها جذابة لمثل كمال ولا سيما من أجل عينيها البراقتين ووجهها المادىء ولا نستطيع أن نقول إلا أنها جذابة لنفس كمال لأنها وقعت فى نفس كمال وكفى ، إلا أن موقف كل منهما من العزلة وموقف كل منهما من هموم الحياة قد أعطى للميل مداً وقوة دون أن يدريا

— ٥٢ —

حملت ايفا سلتها وسارت مبكرة لحقلها ولم يكن فكرها منشغلا إلا بكمال وهل لها أن تجده فى مكانه أم لا ولم تكن لتسأل نفسها عما تفعل إن وجدته . لأن من طبعها ألا تربك

نفسها وأن تهون الامور وأن تترك المضلات تحل عقدتها بنفسها . فما وصلت إلي الخميلة الصغيرة نظرت فلم تجده فابتأست حقا ، وحسن لديها ميلها اليه أن تجلس مكان جلوسه قليلا ، ولا نستطيع ان نجزم بأن جلوسها كان طلباً للراحة من عناء الطريق أو أنها قدرت لذة فى الجلوس بمكان كان جالساً به فتى مالت اليه ، وقد أصبح الآن متغيبا ولعلها لاتراه بعد لأن هذا ثانى يوم هجر فيه خميلته

جلست كذلك فى خميلة كمال واسترسلت فى التفكير فيما يمكن أن تسترسل فيه فتاة فى مثل شأنها وموقفها . وفى تفكيرها هذا وافى كمال خميلته فلما قارب إيفا تنبهت اليه فقامت خجلة وحيته تحية مختصرة وانفلتت فى سبيلها ولم يخف على كمال ما كان فى تحيتها من ابتسامة جميلة وانحناءة رأس لطيفة وكان لذلك أثر كبير فى نفسه فظل يرقب عودتها وما كان عهدنا به كذلك بل لقد كان يقاوم ذلك من قبل أما الآن فقد ترك الامور تسير نفسها لأنه عجز عن تسييرها أما إيفا فقد ذهبت مغتبطة اذ رأته وإذ حيته وإذاً كدت انه لم يرحل وكان ذلك كثيراً على قلبها

فظلت مغتبطة طول طريقها وعادت مسرعة حتى لقد كانت تحدث نفسها أن تعود قبل انتهاء طريقها ولكنها رأت ألا تدعوه ليفهم اندفاعها اليه فملأت سلتها وعادت وفى عودتها حيته بابتسامة جميلة وضح فيها معنى الالفة فطار لها قلبه وأحس بشعور لذة من هذه الابتسامة لم يشعر به من ابتسامة أحد من قبل حتى ولا ابتسامة الدهر وكأن نفسه همت بأن تدعوها للجلوس فخجل وراجعها الا أنه علم أن ذلك ليس مستحيلا فاطمأن

وهنا نرى كمالا قد انساق فى الامر وترك زمام قلبه ، وبعد قليل نهض فعاد إلى منزله مغتبطا تارة وجزعا تارة أخرى. مغتبطا بما كان وجزعا مما يمكن أن يكون فقد تبدل طريقها وقد تنقطع عن روحتها وقد لاتكون قد شعرت بشي نحوه . وقد يكون خادعا نفسه . ولكنه يعود فيتذكر ابتسامتها فتقنعه كل الاقناع

ولم يفكر كمال فى يومه تفكيره الاول ولم يسائل نفسه لم يهتم بهذه الفتاة وانما كانت كل أمنيته أن يراها فى الغد وكفي وكل شأنه أنه طرب بهذه الابتسامة وكفي .

أنه يحس أنه نال شيئا ثمينا ، وهل أثمن مما لم يكن منتظراً

أما ايفا فقد عادت الي منزلها شاكرة هذا الهاتف الذى هتف فى أعماق نفسها أن تجلس مكان كمال فتهيأت لها بذلك تحيته، ثم ظلت فى غبطتها طول يومها

لله أنتما ياصغيران : انتما طيبان وفى حاجة الي شيء من السعادة فقد طال ما اهتممتما فهل الدهر أن يمنحكما شيئا منها ؟ سنرى

— ٥٣ —

كان الموقف جميلا كما تراه : فأما كمال فقدرأى نفسه فى حال جديدة لم يستطع كبح نفسه عن طريقها فترك لها زمامه تقوده كيف تشاء

وأما ايفا فقد رأت بنفسها حبالميل الي كمال فمالت اليه ورأت سروراً برؤيته فتمنت رؤيته ورأت غبطة بتحيته فحيته ورأت جميلا أن يدوم هذا الامر فتمنت دوامه . مهونة كل أمر علي نفسها لابسة لبوسا لحالتها الجديدة وهذا كل شأنهما

هذا منظر جميل ما كنا نقدمه لكمال وما كنا نقدر له أن

ينقطع به تفكيره في طريق كهذا وما كنا نقدر أن ينقاد لأمر
دون أن يعرف غايته وما يمكن أن يؤدي اليه والحقيقة أن الامر
قد وقع به دفعة واحدة فمذ نظر هذه الفتاة لم يستطع كبح نفسه
عن التفكير فيها فاذاً لقد أخذ كمال بهذا الامر أخذاً
وربما كان لسهولة المكان الذي يحيا به ولجماله مناظره ولسكونه
وهدوئه تأثيراً في نفسه علمه كيف يكون ألين طبعاً وأهون
قياداً ، وربما كان معتزاً بعزمه عالما أن في استطاعته أن يرجع به
الى رشده أنى أراد وان يكن هذا ظننا بعيداً وكل الامر أنه
عجز عن قيادة نفسه في هذا الامر فتركها للزمن . وكفى ،
وكثيراً ما يقف تفكير الانسان أو عزمه أو قدرته كل عن عمله
حتى يتم القضاء أمراً فاذا تم دهش المرء لانه كان في استطاعته
رده أو قيادته أو عجز نفسه عن سبيله ولكن دهشه لا يجدي
عليه شيئا لاننا لا ننسى القضاء وانما هو الذي يسيرنا فان شاء
وكثيراً ما يشاء ـ ترك لنا استخدام أفكارنا وعزائمنا وان لم يشأ
خدرها فلم ننتفع بها وكذلك كان شأن كمال

أما أيفا فوجدت نفسها أمام فتى أعجبت به ونزل من قلبها

وحدست أنه أعجب بها وليس قليلا هذا على فتاة مثلها لعلها دون أن تدرى سثمت همها فشاءت أن ينجاب عنها بمثل ذلك.

ولم نذهب بعيداً فكل الامر الى الساعة ان كليهما أعجب بالآخر فمال اليه وكفي

— ٥٤ —

نهض كمال مبكرا هذا اليوم بعد ان قضي ليله فى نوم هادي، فان المرء إن كان مغتبط النفس منبسط القلب ساكن الفكر زاره النوم واطمأن اليه وإذا كان المرء مضطرب النفس ثائر الفكر نفر النوم منـه ولم يشأ مقاربة جفنيه كأن النوم والاسى لا يجتمعان أوكأن النوم راحة والهم عناء والضدان لا يجتمعان وان يكن المرء فى مثل تلك الحالة فى حاجة كبيرة الى نومة ضئيلة ! أو غفاءة تهزأ بهنة وتمحو منه ماتمحو ولـكن هكذا شاء سلطان النوم وكفي

اذاً فقد نهض كمال مستريحا فاطمأن بنوم سعيد ونهوض سعيد فارتدى ثيابه ثم أشرف على الجبل فنظر اليه نظرة هادئة كأنما يسائله ؛ الي مرجع التي مناجاتك مناجاة جميلة أم مناجاة

عقيمة، تقرح القلب وتكد الذهن أجل لم يكن لهذه النظرة الا هذا المعنى ولكن كمالا لم يفكر لهاف معني بل القاها وركب ساقيه الي خيلته الجميلة أجل خيلته التي سيسبغ عليه تحت ظلها سعادة جميلة او التي سيختنق فيها بغصة أليمة : فهو في موقف دقيق فلو ان هذه السعادة المقدرة قد افلتت من يده لداع ما فلم يعد يرى الفتاة ولم يعد في استطاعته معرفة شأنه بها وبالذيل اليها لنالته صدمة هائلة وعاودته نكسة حادة لا فكاره وهو موضع امامه كل شيء

فلنر هل يكون القضاء رحيما به أولا

سار كمال مبكراً الى خيلته وجلس بها هادئا ساكنا كمن ينتظر الوحي اوكان فكره في مهادنة كاملة جلس. جلس كذلك وما له من انتظار الا انتظارها انتظار ايقا الجذابة ، ثم بعد لأى استيقظ فكره من سباته فسأل نفسه : أيحسن لى ان ادعوها الي جلسة أم اكبر عن ذلك فلم يستطع اقناع نفسه باحد الرأيين بترك الامر وليحدث مايمكن ان يكون

***

هذا جديد يا كمال وما عهدناك كذلك ولكن الحالة التى البستها تستدعى ذلك فليكن ما استدعيه

ظل كذلك منتظرا إيفا واذا هى قادمة ومبكرة كذلك فنظرها فبدت له كأنها أكثر حسناً وجمالا وكذلك المرء ان مال الى شيء أخذ يزداد فى نظره حسنه واخذت تنجاب عنه مثالبه وحيناً نرى هذا الاندفاع جميلا وحيناً نراه خطراء الا أنه كان جميلا فى شأن كمال وايفا ،

فلما قاربته حيته فحياها بأحسن منها فسألته عن شأنه كما هي عادة هؤلاء القرويين ان مر أحدهم بمن يعرف فأجابها كمال وعد ذلك كثيرا منها فجرؤ على أن يدعوها لتستريح من عناء الطريق كما كانت مستريحة بالامس قبل قدومه واتخذ حجة لذلك أنه يظن هذه عادتها ويظن أن فى قدومه مامنعها عن اداثها ، فرأت ايفا أن لا مانع من جلوسها اليه فجلست ولم تفكر فى شيء لان الطريق لا يوصل إلا إلي حقلها ولا يقصده أحد سواها والخميلة منحرفة عن الطريق فلا يراها أحد ولا تقع عليها عين سوء ، وقبل هذا فقد رأت من نفسها ميلا إلى هذا فلم

تشأ معاندة نفسها فجلست اليه

وكان هذا ابتداء تاريخهما معاً وابتداء تاريخ جديد فى حياة كل منهما

— ٥٥ —

لله ما أجمل البساطة وما ألذها . لم تجلس إيفا إلى كمال صامتة خجلة كما يفعل سواها فى مثل موقفها ولكنها رأت أنها قد جلست اليه ولا بد من أن يتكلما فكلمته لوقتها وقالت: أظنك غريباً عن هذه المحلة قال نعم قالت فمن أى البلاد تكون قال من مصر قالت بلد طيب ونحن نحبه حبنا لبلادنا ونتخذه قبلة لنا نيممها .

كانت إيفا تقول ذلك وكمال يجيبها فى اختصار ويعجب لأمرها وعدم تكلفها شيئا ولم يدر أنها مالت اليه وتريد أن تكلمه وكفى

ثم قالت وأظنك تعود هذه الخميلة كل يوم قال نعم قالت وأنا أمر بها كل صباح قال اذاً نلتقى فيها فصمتت وعلاها طابع الخجل ولكنها لم تشأ أن تضيع فرصتها فقالت نعم . فلبس أحب

الي من ذلك ، ولا نرض الآن فقد آن أن أعود
ثم جملت سلتها وحيته تحية جميلة وانفلتت

—٥٦—

عاد كمال الي منزله عاجباً من ميل ايفا ، مرتبكاً في تحليلة وتكنيهه فهل قد زاد هذا الميل حتى خطا هذه الخطوات الواسعة في جلسة واحدة أم الامر لاميل فيه ولا سواه وانما هي قد رأته فتي غريبا استجاسها فجلست اليه وسألته فأجابه

هذا ما شغل فكر كمال طول يومه ودعاه لأن يمسك بقلبه ويمنعه من اندفاعه ، فان طفرة ايفا كانت كبيرة لم يدر كمال سرها فاخذ يسائل نفسه أتكون هذه سذاجة منها وتهوينا للامور ودخولا الي الامر من بابه ؟ إن كان ذلك كذلك فقد أحسنت ايفا لأنها كفتنا مؤونة المقدمات وعناءها ثم ترجح لديه هذا الرأى إلا أنه لم يبرمه منتظراً ما يتمخض عنه الغد

أما إيفا فقد ذهبت الي منزلها بسعادة تملأ جوانحها حتى ماكادت تتسع لها ثيابها فهي قد حادثته وهي قد جالسته وهي قد واعدته وهذا كل شيء

ولم يتبدل شيء حتى الساعة في شخصية ايفا فهي هي الفتاة القروية المحبة للعزلة المفكرة تفكيراً سائغا يتفق مع شؤونها الضئيلة وحياتها المحدودة ومحيطاتها الساذجة ولقد قضت يومها ولم يمر بفكرها شيء مما مر بفكر كمال لانها كانت مدفوعة بميلها وسذاجتها ، والسذاجة قرينة الصراحة وكفي

— ٥٧ —

كانت مقابلتهما الثانية جميلة رائقة وكانت إيفا خفيفة الروح كانما قد خلعت عنها ثوب أساها وأعدت نفسها لتسعد بهذه الحياة الجديدة ، أجل لقد وجدت نفسها في ساحة سعادة لا مدى لها كانها لم تقدر أن تمنحها الحياة ذرة من غبطة فلما اتفق لها ذلك طارت به جذلا . فلقد ظلت مدى حياتها هادئة النفس خامدتها وها هي ذي نفسها قد ثارت فلم لا تغتبط ، وها هو ذا الانس يدفع بنفسه اليها فلم لا تأنس

أما كمال فقد كانت به محنة ولعل هذا ما يمحو محنته وكان هو قاتلا نفسه بتفكير عقيم لا لذة فيه وهذا هو التفكير اللذيذ قد وافاه فلم لا يركن اليه

كان هذا شأنهما دون ان يدريا لانهما متقادان في ميلهما أطوع انقياد فلما جلسا هذه المرة بدأت ايفا الحديث كعادتها فقالت لقد سعدت بمقابلة الامس قال كمال وكذلك كان شأني ثم اندفع فقال وأنا منذ رأيتك اهمني أمرك واندفعت بنفسي اليك قالت بعد صمتة قصيرة كان الحياء يراجعها (أما أنا فقد ملت بكليتي اليك، قال ولقد كنت اتفقدك في كل سرب من الفتيات المرتاضات فسهمت ايفا لانها ذكرت انها منقبضة بنفسها عن مثل ذلك منعزلة عمن سواها فقال كمال ما بك ياإيفا قالت لاشيء فانك لتتحدث عن تفقدي بين فتيات القرية وأنا لاأميل الا الي عزلتي ولا اركن الا الي نفسي، فوقعت هذه الكلمة من نفس كمال وظن أن لديها هما تحاول إخفاءه وأدركت ذلك إيفا فلم تشأ أن تفض سعادة جلستهما فقالت إذاً أنت تميل الي يا كمال قال نعم قالت وأنا لا أفكر إلا فيك قال إذاً فبيننا شأن فبم تسمينه فصمتت وكأنما أغلق الحياء فمها بغلق متين فقال إذا بيننا حب فظلت في صمتها وظل في صمته وانقضى زمن وهما هكذا تمثالان جامدان فانتفضت إيفا وحلت عقدة لسانها وقالت: أجل حب

يا كمال بكل معناه ولقد هبط علينا دفعة واحدة فلم يحتج لتمهيد قال وهذا اجمل الحب قالت فامل فيه سعادة لنا قال وهل فى الحب الا سعادة قالت لتكن ارادة الله ثم نهضت لأن موعدها قد آذن . فقال كمال فلنتعهد حبنا تعهدا جميلا يا إيفا قالت ليتعهده الله وكانتا كانت مشفقة على حبهما من خطر ثم مدت يدها اليه فصافحته وظل ناظرا اليها حتى اختفت فلبث فى مكانه قليلا ثم نهض

— ٥٨ —

أجل ان فى الحب سعادة يا كمال ولكن فيه ما سوى السعادة ، ولا ندرى ماقدر ذلك فيه ، ان أحدنا ليشعر بغبطة اذ يرى انسانا يصادقه ويميل اليه بكل قلبه فكيف بما هو أرقى من المصادقة والميل ومن كل عاطفة فى الحياة ، أجل ان الحب لا يترك عاطفة شريفة في النفس الا حركها بل لا يزور الا النفوس الكريمة بطبعها وكمال كريم النفس وايفا كريمتها فليتفقا وليسعدا بحبهما وليكن بعد ذلك ما يكون

فرصة تهيأت لكل منهما أن يتخلص من همه ، هيأها لهما

القدر وهيأهما لها فلم يسر خانها لاداعية لهذا فليضرب قلب كل منهما بنغمة الحب وليملأ صدره بانشراحة الحب وليتكلم بلغة الحب

ان الحياة أضن بسعادتها من أن تعطينا اياها فى كل وقت وأضن بها من أن تعطينا اياها فى غير احتياج أو في غير استحقاق بل انها لاتهبنا السعادة ولكننا نحن الاولي نسعي خلفها ونطاردها . وهل كان سعي كمال طول محنته وسعي ايفا طول همها الا الي السعادة والراحة شعرا بذلك أم لم يشعرا . فأن كل نفس ممتحنة لاأمل لها الا فى شيء من الراحة . وهذه هي الراحة

فليطب كمال وتطب ايفا . كمال بايفا وايفا بكمال

وليفعل القدر بعد ذلك مايشاء

— ٥٩ —

لقد عرفنا شأن كمال وشأن محنته من قبل فما هو شأن ايفا وما هو همها ؟ أجل ان لها لشأنا هاماً وهماً قاسياً .

نشأت ايفا فى منزل راحة ونعمة بين والدحنون وأم رءوم وأخ شفيق ، وكان الزمن مهيئا لهم منه مايريدون وكان الشقاء

فى عزلة عنهما ، وكانت ايفا الصغيرة تختلف الى مدرستها واخوها الطيب يختلف الى حقله فلما نزلت النكبة ببلدهم ، تلك النكبة التى لم تترك بلد الا وتركت فيه أثراً ولم تدع أمة الا وتركت لها مشكلة ولم تدع أسرة الا وحملتها هما ، تلك النكبة التى شوهت العالم من حيث أرادوا بها تجميله ، تلك النكبة الحربية العالمية ، لما نزلت بلبنان الآمن وامتدت ألسنتها اليه سيق والد ايفا الى الحرب فى غير دفاع عن نفس ولا وطن ولا مبدأ . سيق الى الحرب هذا الوالد الرحيم تاركا هذه الاسرة تعانى ماتعانى من هم أليم وحرقة بالغة وشوق قاتل ، وكان الابن لا يزال صبيا لم ينضج . وايفا لم تزل طفلة فقامت عليهما أمهما المدبرة قياما حسناً واحتملت هم والدهما فوق عاتق وهمهما فوق عاتق آخر وسارت فى قافلة هذا العالم تزاحم مع من يزاحم حتى اختلطت طريقها وطريق ابنيها . وكان الدهر يضغط على ناجذيه ويكتم لها غيظا أليماً

فلما هدأ العالم وتنفس الصعداء وسكنت حرب المدافع وقامت حرب الالسن والاقلام واستقرت الضحايا فى غليانها

ومن بينها هذا الوالد الكريم . لما كان ذلك جاءوا فى ثوب المحسنين ليؤدوا لمن أصيب فى الحرب إعانة تساعده على أمره. فهل تعلمون ماكانت اعانة أسرة ايها المسكينة . لقد كانت ضربة قاصمة . لقد كانت ضربة قاسية على هذه الاسرة سودت لها وجه الحياة فهل تعلمون ماهي .

ذهب أخو ايفا أيضا المسكين الي حيث توهب الاعانة لينال معينا لاسرته التي فقدت عائلها . أجل فان والده قد ذهب ضحية من ضحايا الحرب . ذهب ضحية ثمينة لانه كان رجلا كريما أريبا ذهب ضحية غالية لانه رب اسرة كريمة . ذهب ضحية حمقة لانه ماكان يدرى سر هذه الحرب . فلما قدم الابن الي حيث تعطي الاعانة كان محتداً ثائراً وكان المصابون كثيرين وخشي وهو لا يزال صبيا يافعا أن يذهب ضحية هذه الكثرة. فلم يطق صبراً وتقدم الي الموزع فى حدة واضطراب لم ترق لدى هذا الضابط الموزع ، ذلك الذى ملأته الحرب قسوة وشدة ولم تؤهله لان يقدر موقف هذا الابن من موت أبيه . فماكان منه الاان نهض الى هذا الصبي ومنحه ضربة قاسية فوق ظهره

بعصا غليظة كانت فى يده فافسدت من نظام أعصاب الصبى ما أفسدت وخر مرتميا فحملوه الى منزله فعولج ما استطيعت معالجته وما سمح المال الضئيل لاسرته فلم يجد عليه العلاج شيئاً وفسد النصف الاسفل من جسمه فلا يستطيع به احساساً ولا له تحريكا فأتى فى متكأ بجانب منزله لا يزال جالساً به طول يومه كانه اعلان دائم بما يفعل الظلم والقسوة بالبشرية ، ولا يزال يراه كل مار بهذا الطريق حتى الساعة

***

اذاً فقد مات الوالد وارتمي الابن لا نفع فيه ولا اجداء وسكت الدهر عن هذه الاسرة لانه نال منها ما يشاء فسارت فى مهب رياح هذا العالم كيفما تسيرها تسير ، مضطربة حينا وهادئة حينا

هذه قصة ايفا المسكينة وهذا سر همها وانقباضها وهذه هي صحيفة نفسها المكتئبة وهذا ما جعلها فى حاجة كبيرة الي شيء من السعادة بل الي الابتسامة فلما تهيأ لها شيء من ذلك لم تستطع معاندة نفسها

فهل يسكت الدهر عنها، سرى !

— ٦٠ —

لشدما ينال الشقاء من هذه الاسرات البائسة التى لا تجد لها عائلا ولا حاميًا من نكبات الدهر وصروفه فتضطر لان تدافع كل شيء بايديها الرقيقة التى ما تعودت المدافعة وبقلوبها المسكينة التى لا تعرف الاحمال وتضطر لان تختط طريقها فى ساحة هذا العالم الشائكة باقدامها الناعمة،

وقد تخال هذه قسوة من الدهر ولكن كل شيء فى العالم لابد له من سر، وانما شرب العالم من السعادة مرة فليشرب من الشقاء اثنتين ذلك لان فى هذا نظام العالم، ولو ملىء العالم سعادة فحسب لكان تافها ولسمج منظره ولسئمه الناس والجو الساكن لا يكون نموسا ولا يبعث قوة وانما الجو المضطرب هو الذي يكون ويبعث، ولا نريد ان نقول ان العالم مضطرب ولكنا نقول دائم الحركة والمجاهدة، أجل مجاهدة الآلام والاسقام والشدائد والجوائح ودائم الحركة خلف السعادة التى يطاردها فى كل آن

هذا هو نظام العالم الجميل وان حسبته العقول القصيرة اضطرابا ولقد جهد أبناء آدم منذ خلقهم كي يعلشو سعادة وترفيها فما زادوه إلا شقاء ومحنة

إذاً فلا بد ان تكثر الضحايا فى هذا العالم ومن للضحايا كانت اسرة ايفا المسكينة ـ ولكن هل تظل هذه الاسرة تاعسة مدي حياتها فلا تفكر الا فى بؤسها وهمها ، لا فان النفوس لتسام التعس والتفكير فيه ولا تلبث أن تتحايل على تسريحه وذوده ثم لا يلبس أن ينحرف الى زوايا القلب فيستكن بها حتى يتجلجه ملجلج فيثور ثم يعود فيهدأ وهكذا ، سنته مالها من تبديل

اذا فاسرة ايفا قد هدأ همها بعد زمن واكتفي بان دفن فى القلوب وترك كساءهم على الوجوه ليدل الرائي على ان هنا خطراً فيجب الايثار

أجل اننا يجب ان نرحم هؤلاء التاعسين ونلائم جرحهم ونهون أمرها عليهم ونريهم من غبطة الحياة مالم يروا حتى نزفه عنهم بعض همهم

فلنر ما يصنع الدهر بايفا بعد ان كانت نفسها متعطشة

لشيء من السعادة فتطوع الحب لان يسقيها كاسا منها

— ٦١ —

تركنا كمالا وقد اقتنع بان الحب متبادل بينه وبين إيفا ، بل تركناه وقلبه يفيض بالحب وهو لاه بشرابه لا يفكر فيما وراءه ولا فيما قبله ، أجل انه الان لا يفكر الا فى متعة الحب والسعادة به وما له شأن بأفكاره الاولي وماله شان بما يكون من عاقبة هـذا الحب

نعم ياكمال ان الحب شاغل جميل من أجلك ومن اجـل رأسك الثائر على العالم وهو الذي سيشعرك ان فى العالم لذة وان فى العالم سعادة فلقد نقمت على لذة العالم وسعادته فوافاك الزمن باكبر لذة لديه فهـل لك بالاطمئنـان ياكمال ؟ أجل إن نفس كمال متمسكة كل التمسك بهذا الحب ولو سئلت لم تحيا الآن لما أجابت إلا بأنها تحيا من أجـل الحب ومن أجـل إيفا الخذابة

ولكن هل يفكر كمال فى أنه شفي من دائه أوسائر فى سبيل ذلك ، لا فقد ألهاه الحب عن شيء من ذلك ، بل أصبح

يرى نفسه فى جنة لا يفكر فى طريق وصوله اليها ولا يقدر أن هناك طريقا للخروج منها لا يفكر فى الاول لانه ربما كان شائكا ولا يفكر في الثاني لانه يزعجه

فلنطمئن اذاً الي كمال فان كل نكبته كامنة فى محنته فاذا انجلت أو آذنت بالانجلاء فقد نجا كمال أو كاد لان كل أمر بعد ذلك هين. وكفي بفكر كمال هاديا فى كل طريق ومرشداً فى كل خطر داهم

فلننظر مايفعل الحب به وبايفا الجذابة . لننظر ما يفعل بهذين الحبيبين فلكل منهما شأن عجيب !

— ٦٢ —

جلست ايفا الي كمال فى اليوم الثاني تحادثه حديثا رقيقا ويحادثها حديثا عذبا وقد صفا ذهنهما واستعذبا ورد حبهما . الا أن كمالا كان أهدأ خاطراً من ايفا لأن ايفا كانت تستكثر هذه السعادة على نفسها وكانها تحسب نفسها فى خيال جميل أو حلم لذيذ لانها لم تفكر فيما يكون من أمر هذا الحب. أما كمال فلم يكن يفكر فى شيء من ذلك

قالت ايفا هل لك فى سيرة معي الى الحقل لنبتهج بجمال الطبيعة قال لنحصن حبنا بخميلتنا وجمالك يغنيني عن كل جمال وكأن كمالا خشى السير في رفقتها حتي لا تقع عليها عين. وكأنما ادركت ايفا ذلك وادركت خطره فقالت اجل ان خميلتنا تصبح جنة مادامت ملائكة الحب ترفرف فيها فتأثرت نفس كمال لكلمة إيفا التي أرسلتها فى هدوء وهي كلمة ثائرة حقا. أما إيفا فقد ألقت الكلمة ثم سهمت وصمتت كأنما تتلقى الوحى من ملائكة الحب. فقال كمال مابك ياإيفا ثم أخذ بيدها فاذا نبضها سريع فعرف أن الكلمة قد بلغت من قلبها وأشفق عليها إشفاق المرء علي طفل صغير بين يديه ثم حدس أن لديها سرا تتذكره فتجهم فقال أتخفين عني سرا ياإيفا فراوغت فكرتها وهمت بأن تقول شيئا فلم تستطع فردته إلي نفسها فضم كمال رأسها الصغير الى صدره وحنا عليها حتي هدأت قليلا ثم رأت أن ميعادها قد آذن فاستأذنت ونهضت

نهضت إيفا وكمال يتأملها ويعجب لما بها ويحسب أن عاديا سيعدو على حبهما قريبا او بعيدا وما أكثر عاديات الحب. أخذ

يفكر فيما حل بأيفا وأهمه أمرها واختلطت فى قلبه لذة الحب بهم ماحل بأيفا فأكد لنفسه أنها تراوغ سراً وأن كل كلمة من كلمات الحب تثيره فأبرم أن يستكشفه . وإن استطاع فليقاومه بكل قوته وعزمه فان حائلا لا يمكن أن يحول بين حب إيفا لكمال وحب كمال لايفا »

كان يناجي نفسه بهذا ثم تحامل على نفسه ونهض مهموما

— ٦٣ —

إذاً فقد تبدلت حال إيفا بعد أن دخلت حظيرة الحب . إنها دخلتها مندفعة لاتفكر فى شيء مهونة كل أمر على نفسها . أما الآن فانها بدأت تفكر ، فلحظة قالت لكمال ان ملائكة الحب ترفرف فى خميلتنا مر فكرها خاطر اليم ، مر بفكرها أن كمالا فتى غريب ولا بد من رحيله فى القريب ، من ذلك بدا وغدا تجلس وحدها فى هذه الخميلة تناجي نفسها بها وقد خلت من ملائكة الحب وأصبحت ذكرى مؤلمة فحسب

كل ذلك مر بايفا المسكينة وهي ساهمة فلما وضعت رأسها على صدر كمال نسيت كل شيء ولم تفكر الا فى الحب الذى لا نهاية

له فهدأت قليلا واطمأنت

أما كمال فقد خشي على سعادته الخطر فوقف على باب التفكير محاذرا ولوج ساحته هائبا ما يعتوره فيها من آلام ربما كانت مبنية على الخيال فلا ينال منها شيئا الا أن يخدش تمثال الحب الجميل ، فلينتظر بنفسه وبفكره الى الغد ليرى ما أهم ايفا

* * *

أما ايفا بعد ما كان من أمرها بالأمس فقد أبرمت أن تكون أقوى احتمالا وأن تأخذ من سعادة حبها بنصيبها وألا تزعج كمالا بمثل ما كان من شأنها في جلستها الاخيرة اليه فان ذلك ما يقض اطمئنانه ويتلف راحته وصممت أن تترك كل شيء للقدر يفعل به ما يشاء فلا تفكر في هم نفسها وأسرتها ولا تفكر في شأن حبها وغايته

— ٦٤ —

عاطفة قوية تلك التي يسميها البعض حبا ويسميها سواهم سعادة ويسميها الآخرون عناء ، أجل ان هذه العاطفة قد جعلت ايفا كالعود في يد العاصفة وما كان لنفس مثل نفس ايفا أن تقاوم

عاصفة كهذه أو تتحمل تقلباتها واضطرابها ، ولكنا نراها ساعة مندفعة الى الاطمئنان فتطمئن وساعة إلى التفكير فتفكر وساعة الى الألم فتتألم أما تهوينها للأمور ، ذلك الذى عرفناه عنها من قبل فقد تحول عنها لأنه مدافع ضعيف لا يستطيع أن يقف أمام هذه العاصفة القويه عاصفة الحب ، ولقد كنا نؤمل أن نراها أكثر هدوءاً من ذلك ولكن هذا مايراه النظر القصير ، لأن إيفا فى بؤسها وهمها وضعف حيلتها لابد أنها ستفكر إذا اتصلت بحب مع كمال فى شأن هذا الحب وقوة ثباته ومدى حياته ، أما كمال فأنه كان معتزا بعزمه متقويا بفكره متخوفا من العودة إلي محنته ، فلا يفكر إلا فى هذه العاطفة الجديدة التى احتلت قلبه عاطفة الحب ،

وبعد فما كان كمال يقدر أن يكون لأسرة إيفا هذا التاريخ الأليم ، بل كان يظنها فى سذاجتها وانبساط نفسها فى أول عهده بها فتاة رائقة الفكر تحيا حياة هادئة جميلة ، ولكن هكذا شاءت عاطفة الحب أن تكون دائماً عاصفة ، فى كل مكان وتحت أى جو

عملت ايفا فى اليوم الثاني علي أن تكون أهدأ خاطرا وأروح بالا وأخذ كمال يحادثها ثم يهم بسؤالها عن شأنها بالأمس فيخشى علي هذه السكينة أن تكسر وعلى هذا الهدوء أن يضطرب .

وأخيرا لم يستطع صبرا فاستفسرها الامر فأرادت أن تراوغه أو تختلق لها عذرا فما استطاعت ولا أطاعها فكرها فصمتت قليلا ثم قالت « أتريد أن تعرف سر ذلك » قال بلى « وما بيننا من سر يخفيه أحدنا عن الآخر » قالت « لقد مر بفكري خاطر أليم ! مر بفكري أن هذا الحب ربما يولد في هذه الخميلة ويقبر فيها » ثم صمتت كأنما أغلق فمها بغلق ، فاضطرب كمال لكلامتها وقال « ماذا تقولين يا ايفا اتستوهين حبنا وتستضعفينه قالت بل أستقويته واستعظمته . قال «أتعاهديني علي الثبات فيه » قالت هذا الامر موكل اليك فقد جعلت نفسي كرة في يد الحب قال واني أعاهدك علي الثبات ما استطعت فأن هبت عاصفة لاقبل لحبنا باحتمالها فذلك من شأن القضاء

قالت ليبارك الله حبنا ثم خشيت الاسترسال فأرادت أن تدير مجرى الحديث فقالت : ان هذه الخميلة أصبحت مقدسة لأن الحب نبت فيها وهل شيء أقدس من الحب سر الحياة

فأثارت هذه الكلمة داء كامنا في نفس كمال فاضطرب فقالت ما بك ياكمال قال لاشيء وراوغ الامر حتي لا يزعجها ولكنه لم يستطع أن يقود نفسه جيدا في الحديث ولكن الامر عمي عليها وكفي ،وقد استطاع كمال أن يؤجل تلك الفكرة التي عرضت له ولا بد أن يقتلها فحصا فلما انقضت جلستهما أخذ يفكر هذا التفكير :أهذا هو سر الحياة الذي كنت أبحث عنه فأخطئه، أهو الحب سر الحياة ،أجل إنه لعاطفة كريمة يجب أن تملأ النفوس ويجب أن تجلو القلوب ، ولكنها لا تكفي لأن تكون سر الحياة أم ماذا يكون ؟

أجل إنها المثل الأعلى لتبادل المحبة بين القلوب ،وعلى المحبة تعتمد سعادة الناس بحياتهم ، ولما كان الحب يترأس جميع العلائق بين قلب وقلب فهو إذاً سر الحياة ، قال ذلك كمال واتصل بهذه النتيجة فلم يقتنع اقتناعا كاملا إلا أنه أوهم نفسه

أنه مقتنع ثم نهض إلى منزله

وبينما هو فى طريقه أخذ يفكر فى هذا الحب الذى لا يعرفه دونهما إلا جوانب خميلتهما فلم يجتمعا خارجها ولم يتريضا معا لأن العيون يخشي أن تقع عليهما وفي هذامالا يتفق والأخلاق القويمة فى هذا البلد ، فكر كمال هذاالتفكير ثم عاد فأعجب بهذا الحب المادىء ثم قال فى نفسه « ما أكثر ما خدمتنا هذه الخميلة الجميلة ، معبد الحب »

وكان قد وصل الي رفيقه فأخذا فى حديث آخر

— ٦٦ —

لم يكن رفيق كمال يعلم شيئا من شأنه الجديد ولو أنه علم لا غتبط بأن فكر كمال قد تحول عن اتجاهه الأول وكل اتجاه آخر لا خطر فيه وكان هذا الرفيق يرى كمالا عائدا مغتبطا برياضته كل يوم فيسر لذلك ايما سرور فلما عاد كمال هذا اليوم وامتدح رياضته طلب اليه رفيقه أن يصطحبه في الغد فراوغ كمال الأمر لالأنه خشى أن تقدم إيفا فتنزعج لوجود انسان آخر فحسب ولكن لأنه رأى عبثا أن يضيع لحظة

من لحظات جلوسه الى إيفا، فلما راوغ الأمر أدرك رفيقه أن هذا لو لم كمال بالعزلة والتفكير ولم يقدر أكثر من ذلك، واطمأن لأن تفكير كمال أصبح معتدلا ونفسه أصبحت مبتهجة وأسئلته قريبة المدى

* * *

أما والدة ايفا فلم تكن تعلم من شأنها أمرا إلا أنها كانت تلحظ كلما دخلت عليها ايفا أنها ساهمة أو ذاهبة الفكر حتى لقد كانت كثيراً ما تناديها فلا تستيقظ اليها، فظنت الام المسكينة أن هذا عارض مما يعرض للفتيات فى شبابهن ولا يلبث أن يزول

— ٦٧ —

هل يظل سر إيفا خافيا عن كمال وسر كمال خافيا عن إيفا ! أم تفتق الليالى عن هذا وذاك، لا ندرى، وهل يكون حبهما حباً خالياً من الأمل أم ممتلئا أملا ؟ لا بد أن يعلم ذلك كل منهما ولا سيما إيفا لأن تفكيرها قريب المدى فهي تريد أن تطمئن على حبها خوف أن تعبث به العوابث، أجل ان كمالا

فدعاهدها على الثبات فى الحب ولكن مامعني هذا ؟ فهل هو
قد اعتزم الاقامه فى قريتها أم ستضطر لثبات الحب ان تغادر
قريتها ام كيف يظل هذا الحب قائما فى مهب العاصفة اذا حان
هبوبها وهل القضاء الذى هيأ هذا الحب وهيأه كاملا فى عدة
ايام حتي لقد ولد شابا سيجعله كهلا فى عدة ايام سواها ثم
تطيح به العوادى وهل لم يهيء القضاء له حلا جميلا ! ان إيفا
تريد ان تفهم ! وهذا ما كان يعرض لها كل آن وهذا مادعاها
الى التفكير الأليم كأن القضاء عز عليه ان يرى هذه الفتاة سعيدة
فكلما قدم اليها شيئا من السعادة لايلبث ان يسترده او كأنما
عز علي الشقاء ان يفارقها ساعة فكلما دافعته لايلبث ان يعود

لك الله ياإيفا ولك الخير كله . انت طيبة كريمة ولكن
القضاء يعارض راحتك، ولا بد لذلك من سر ما فى حبك هذا
فلا ندرى ان كنت اتخذت وسيلة الي نزع هم كال فحسب ام
ان لك في الحب صفقة رابحة وكل ما ندريه عنك انك إيفا
المسكينة

— ٦٨ —

ارادت إيفا هذا اليوم ان تعلم مايقدر كمال لحبهما فما أكثر ما يشغلها هذا الامر فقدشغلها الخوف من ان يعبث بحبهما اكثر مما شغلها الحب نفسه ولهاذلك فان موقفها في حبها وفى حياتها موقف قلق ، ولقد أحبت كمالا حبا صادقا ومنحته كل قلبها وهذا مادعاها لأن تعمل لتطمئن على هذا الحب ذلك الذى أصبح فوق كل شيء وقبل كل أمر ، وذلك الذى أذاقها طعم السعادة بل طعم الحياة فهل يدوم أو تنزل به صاعقة

جلست الي كمال فاذا هو يحدثها عن خاطره الذى عن له بالامس ويخبرها انهما لا يستطيعان ان يطيرا بحبهما الي مكان اخر خوف العيون فرأت إيفا أن هذه فرصة يجب ألا تسرح فقالت وما زال هذا شأن الناس فى التضييق على الحب والمحبين فقال كمال إنني لا أدرى مايضر الناس لو تركوا القلوب يتصل بعضها ببعض فتسعد بالحب وتطير به أنى تشاء إن الحب حياة القلوب وغذاؤها وكل قلب لم يتغذ بالحب قلب صلد لا يرق ولا يلين وان الناس ان ضيقوا على انفسهم فى كل امر فكان واجبا

أن يغربوا عن التضييق علي الحب والمحبين ، ولكن كل هـذا لان النفوس مازالت فى حاجة الي كثيرمن عنصر الفضيلة قال ذلك كمال لارضاء نفسه وفكره أما ايفافكانت تفكر فيما تقول فلما شعرت بانتهائه قالت ومن يكفل لهم ألا يكسر الحب قلوبا ولعلهم يطاردونه ويضيقون عليه سبله من أجل ذلك قال ومتي يكسر الحب القلوب قالت اذا كان مبهما لا يعرف له غاية قال وهل غاية الحب الا الحب قالت أردت أن أقول اذ كان لا يعرف مداه قال ان هذا متجاوز ارادة المحبين وكل محب يرجو أبدية حبه قالت اذاً يدوم حبنا يا كمال قال أجل ويزداد كل يوم ثباتا قالت ليكن ذلك ثم صمتا معا وذهب كل يفكر فى سبيل ثم أفاقا معا فاستأذنت ايفا ونهضت لشأنها بعد أن منحت كمالا تحية جميلة

— ٦٩ —

تقدم الحب بايفا وكمال فكان كل منهما يعد ساعة جلوسه الى الآخر ساعة قد ضمت من نعيم الحياة ما لا حد له وكل ساعة أثمن مما قبلها وكل يوم أجل مما سواه وكذلك النعيم كلما دام صفا

وذهب مايعلق به من رنق ان كان يستطيع أن يعلق بالنعيم رنق . ذلك لتطيب به النفوس وتطمئن اليه ؟ ولقد رأت ايفا وكمال من انسهما بعضهما ببعض ومن حبهما الجميل إذا انضمت عليهما جوانب خميلتهما مالم يره إلا القليلون من المحبين الذين سكت عنهم الدهر زمنا

وأحست ايفا أنها وهبت قلبا غير قلبها وأحس كمال أنه وهب فؤادا وفكرا غير فؤاده وفكره ولو أنه سئل عن الحياة لقال مبعث السعادة وملتقي ضروب النعيم ولكنه كان لاهيا عن هذا التفكير وهل شيء فى الحياة يلهي ويشغل أكثر من الحب

إذاً فقد سكت الدهر عن ايفا وكمال وأرضعهما نعماءه وارتاضا فى جنة أنسه وطربه ودام بهما هذا الامر شهراً طويلا والامور كما يشتهيان والحياة على أجمل مايمكن أن تكون : يجتمعان وينفضان ومالهما الا حديث الحب ونجواه ، تضمهما خميلتهما فان تعب أحدهما وضع رأسه فوق صدر الآخر وبين يديه وترك قلب الآخر يحدثه وهو يستمع اليه ، أجل لقد أصبح حبهما صافيا لا يكدره مكدر لأن دواعي الالم كانت

فى معزل عنهما ، ولأن الحب كان ساذجا فليس من مواعيد تخلف ولا من عيون تراقب ولا من تعرف سواهما بامرهما أو تعرف أحد منهما بسواه ، اجل كان الحب لذيذ الورد وكانت الحياة رائقة صافية وكانت السعادة مدلاة القطوف فهل يسكت الدهر عنهما ؟

— ٧٠ —

السعادة والشقاء موزعان فى هذا العالم توزيعا عادلا فأذا اخذ المرء بقسط وافر من احدهما امتلأت كأسه من الآخر وهكذا سنة ما لها تبديل وليست السعادة احتكاراً لقوم دون قوم وليس الشقاء نكبة علي قوم دون آخرين لان الناس مع ما بينهم من فرقة متساوون فى حظهم من الحياة ، ونحن اذا كنا نبحث عن المساواة فى الحقوق بين بعضنا والبعض وفى معاملات بعضنا لبعض فأولى بالقوة الالهية ان تقسم حظنا من الحياة تقسيما عادلا

ولقد أخذت اينما وأخذ كمال من قبل بحظ كبير من التعس ثم عادا فأخذا بحظ كبير من السعادة فهل تدوم سعادتهما

لم يعودنا الدهر ذلك ولم يعودنا الشقاء أن يغفل عن الناس أمداً طويلا ، بل ان قلوبنا ليخاف عليها أن تنفجر اذا امتلأت اكثر من سعتها بالسعادة كما يخاف أن تنفجر اذا امتلأت أكثر من سعتها بالتعس

اذاً فلا بد أن يتغير وجه تاريخ كمال وايفا لأنهما وصلا الى حدود السعادة وحدود السعادة تلتقى نهايتها مع الشقاء وحدود الشقاء تنتهي أطرافها مع السعادة ، هذا مالا ريب فيه وهذا هو نظام العالم جحد ماجحد الجاحدون وجهل ما جهل الجاهلون وثار ماثار الثائرون وهذا نظام قد ثبته توالى الدهور واظهر انه ليس أقوى منه ولا أثبت فلننظر ما يكون من شأن إيفا وكمال بعد ذلك ؟

— ٧١ —

جلس كمال الي رفيقه فقال ماقولك يا كمال فيما تم لنا من رحلتنا قال رحلة جميله كل الجمال قال لعلك مطمئن النفس هادىء الفكر قال كمال نعم وسعيد كل السعادة قال لقد إعتدلت أفكارك و اصبحت ترى فى الحياة أموراً تستحق التقدير قال

أجـل ، قال إذاً سنعود مغتبطين قال نعم قال واظن أن الجو بدأ يبدل ثيابه وخير انا ان نعود قبل ان تلحق بنا برودته لأن اجسامنا اضعف من ان تطيقها فصمت كمال فقال رفيقه يبدو لي ان الحياة قد راقتك فى هذه القرية الهادئة ولكننا في حاجة لان ننتفع بفكرك وعقلك فى مجال اوسع قال كمال اجل يجب أن يقوم الانسان بخدمة لهذا العالم الذى يخدمه جميع افراده وإلا كان جاحداً ، فان كل ما نتمتع به من صنع سوانا ونتيجة مجهوده ولا بد ان نبادله مجهوداً بمجهود والا كنا جامدى النفوس ضعفاء الاحساس والشعور واني لأخال فكرى قد اصبح اكثر حدة وعقلي اكثر قوة واصبحت اكثر تهيؤاً لان اخدم العالم بمهنتي وآرائي فاطمأن صديقه وسر بحديثه وعلو همته واعتداله ثم نهض كمال على ان يحددا فيما بعد موعد عودتهما

— ٧٢ —

اذاً فقد لاحت المشكلة التى كان يحذرها كمال ويحذر التفكير فيها والتى فكرت فيها ايفا من قبل ثم خدعت نفسها

فى حلها وطمأنتها من حيث ليس هناك داع للاطمئنان ولكن الأمر هين مادام كمال لا يعلم عن اسرة ايفا شيئا وكأنه كان يتحاشى سؤالها عن شيء من ذلك او كأن حديث الحب قد الهاهما عما سواه فلما بدأ كمال يفكر فى شأنهما وجده هينا فما يرتضيه الحب والعقل ألا يهجر ايفا بل ان ينعما بكونهما لبعضهما الي بعض فاما مقامه بقريتها فمحال وهي تعلم انه محال اذا فما احبته ولا املت فى حبها وثباتها عليه الا وقد اعتزمت مرافقته الي حيث يريد والتضحية بكل شيء فى سبيل الحب ان كان هناك مايجب ان يضحى ، وابعد من هذا فهي ان ركنت اليه امكنهما ان يحييا حياة هادئة جميلة ، ثم قدر كمال فى نفسه ان رفيقه ومن بعده والده سيطمئنان الي ذلك لان هذا هو ما اراداه من قبل ثم ذهب مع تفكيره فقدر انه سيكون اهدأ بالا وأقدر على العمل اذا وجد ايفا الجذابة بجانبه تقاسمه شؤون الحياة

كان كمال يقدر ذلك ولا ندرى اذا كانت الاقدار تؤمن بحديثه أم تهزأ به ، ولكنه قد اطمأن وكفى

قدر كمال انه سيرحل قريبا فأراد أن يخلص نفسه من أفكاره الاولى جميعها أو مما بقي عالقا بنفسه منها، وأن يبتدىء حياة جديدة، حياة نشاط وتفكير قويم

جلس إلى نفسه بعد رياضة الأصيل وأخذ يستعرض ماضيه ويهزأ به فقال في نفسه: ليست الشجاعة أن تنتقد كل شيء فى العالم بل أن تصلح ما يمكن إصلاحه وأن تجارى ما لا يمكن إلا مجاراته، ثم سخر من نفسه لأنه كان قد مل العمل فقال: إن إنسانا عل العمل ليصبح أتفه مخلوق فى الوجود، لأن لكل مخلوق عملا يؤديه ويقوم به قياما معقولا فى جد ونصب، ثم استطرد فقال: وإذا كان كل مخلوق يتشبث بحياته ويفر من الأذى ومن أى عاد يوشك أن يعدو عليها فلابد أن كل فكرة تمنع التشبث بالحياة وتصغر من شأنها لدينا فكرة شاذة يجب مقاومتها، فاذا كنت قد تخلصت من هذه الفكرة فيجب أن أطيب قلبا وأهدأ بالا ثم قال على انه كان واجبي أن أتحمل وحدى هم كل ما كان من امرى، اما والعلاقات بين الناس بعضهم وبعض علاقات قوية

متينة فلا بد انني قد اسأت الى الكثيرين من ذوى. إذاً فلأكن أروح نفسا ولاجعلهم ما استطعت اكثر اطمئنانا وأرخي بالا ولاجتهد ألا اكون يوما ما مبعث الم لسواى فليس فى هذا من الشجاعة شيء ولا من المروءة ذرة، إذا فسأرحل الآن انسانا غير الانسان الاول والفضل فى هذا لرحلتي الجميلة، المناظر الجميلة، لايفا الجميلة !!

— ٧٤ —

كانت جلسة إيفا الي كمال جلسة هامة في حياتهما فقد جلسا هذا اليوم يتحادثان همسا كأن كلا منهما يستشعر خطرا،

قال كمال لقد حل البرد يا ايفا قالت اتدعو هذا بردا وهو عندنا لا يعد من البرد فى شيء قال انني لم اتعوده لاعتدال الجو لدينا قالت اجمل ببلدكم يا كمال، اما نحن فاذا حل البرد دخلنا منازلنا وبدأت حياة مضحكة مؤلمة لنا فلا نكاد نغادر منازلنا الا عند طلوع الشمس وقد نظل شهراً لا تطلع علينا شمس وقد سجنتنا الطبيعة في منازلنا رجالا ونساء وقد غصت منازلنا بحاجتنا من طعام وشراب وسواهما مما تستوجب الحياة ولكن منظر الفة

جميل ان تجتمع الاسرة جميعا حول مدفئاتها تتسامر وتتحادث
ولقد يغمر الثلج المنازل ويعلو فى الطرقات ولو ان ناظرا
من اعلى نظر الي القرية من قرى لبنان عند ذلك لسره
منظرها ولاضحكه منظر هذه الآدمية المختبئة ، قال كمال
ولكن أما تفكرون فى حيلة لان تعملوا وتجدوا وإن حل
بكم هذا البرد وهاهي كثير من بلاد أوربا مضطربة الجو ولكن
العمل سائد فيها لا ينقطع لانه لا معني لان يقف مجهودكم من
البرد الى هذا الحد، قالت ليفكر المفكرون أو لتقم أنت فى
قريتنا لتدلي إلي الناس بما ترى من رأى قال إني لا أحمل مثل
هذا البرد ولا أستطيع المقام تحت جوه فسهمت إيفا وصمتا
معا ذلك لان إيفا قد وصلت مرة أخرى إلي النقطة الحرجة فى
حياة حبهما ثم تشجعت وقالت فماذا نفعل يا كمال بحبنا قال أنا
طوع ما تريدين قالت لقد شغلنا الحب عن التفكير فى عاقبته
قال ليكن الله موفقا حبنا قالت ولكن علينا تدبير شأننا قال
وهل من عقبة تتكاءدنا فى سبيلنا قالت لا أفهم ما تعني قال أما نع
يمنعك عن الرحيل إلى مصر وإياى ، قالت إنى أوافق على ما

يرتضيه الحب وآبى كل مايعبث به، قال ماذا تريدين أن تقولي إنك لتراوغين عني أمرا فبالحب الا أفصحت قالت أريد أن أقول لا أدري كيف ألهيناعن معضلتنا هذه من قبل فلما كنا قد عثرنا على حل قال وما المعضلة اذا اعتزمت الرحيل فصمتت ايفا ثم لم يلبث أن تساقط من عينيها سرب من الدموع كانه رسالة استعطاف الى كمال ألا يقسو عليها أو للزمن أن يكون أشفق بها من ذلك أو كأنها كانت تدخر هذه الدموع لمثل هذا الموقف الاليم فأشفق عليها كمال وقال لندع ذلك الى الغد فدون الرحيل أمد طويل نستطيع التفكير فيه والادلاء بما نريد فاطمئني الآن ياايفا فليس أقسى على قلبي من أن أراك مهمومة

فنهضت ايفا مهمومة واحتملت سلتها وقصدت حقلها ولكنها وجدت أن الحديث قد ألهاها عن ميعادها ولا بد أن امرها سيشغل والديها ولذلك فقد ازدادت همًا واضطرابا

ان النكبه اذا نزلت نزلت دفعة واحدة و اذا آذنت بالرحيل

انجابت شيئا فشيئا. ولقد هبت عاصفة عاتية بهذا الحب الذى. شب ونما فى هـذا الوقت الضئيل ولا ندرى ماتفعل هـذه العـاصفة بهذا الحب. لقد شب ونما وشيكا فهل لم يكن أساسه. قويا . أجل أن الموقف عجيب ومؤلم معا ، فهـــــل تذوى كل أغصـان الحب النضـيرة أم يزيد نماؤها وترعرعها وهل تصبح هـذه الحـيـاة ذكرى اليمـة أم ذكرى سعيدة ، وهل تنصف إيفا المسكينة من شقائها العنيد أم. تظل سجينه بؤسها مدى حياتها ، أيهنأ كمال بايفا وإيفا بكمال أم يحول حائل من حادث الدهر بينهما ، لاندرى وسنـدرى:.

— ٧٦ —

ذهب كمال الى منزله حاملا على كتفيه هم إيفا واثقا أن خطرا ينتظر حبهما أو حائلا سيقف دونهما تعلمه إيفا ولا يعلمه هو فماهو هذا الحائل الذي يريد أن يقوم حجراً فى سبيلها. ان كمالا لابد أن يقف عليه

جلس كمال وحده وذهبت به الافكار كل مذهب وأخذ. يحادث نفسه هذا الحديث: أهذى هي الفتاة التي أؤملها والتي.

علاً نفسي مدى حياتي ، أجل انها طيبه القلب كريمة النفس مستيقظة الروح ،معتدلة التفكير ولكنه على كل تفكير ساذج. وإذا كانت تستطيع أن تحدثني بلغة الحب وتسايرني فى التفكير فى ساحته فهل اذا تضاءل هذا الحب أو طغت عليه الحياة الاخرى التي نقدرها تستطيع أن تجاريني فى التفكير أجل انها لتستطيع لأن الحب قد صقل ذهنها ،ومزج فكرينا وقلبينا وصنع منهما نسختين من نوع واحد فاننا لم نختلف فى أمر منذ أحببتني وأحببتها ولم يتجاوز الينا لوم ولا عتاب ،اذا ايفا هي الفتاة التي استطيع أن أرى نعمة الحياة بجانبها وكفي أن الحب قد ربط ما بيننا بأقوى رابطة فاذا اتفقنا من قبل فى الحب فأننا متفقون من بعد فى كل شيء لان الحب يترأس جميع العواطف.

قال ذلك كمال واقنع به نفسه إلا أنه تذكر أن الحب يعمي عن كثير وأن هذا حق لا ريب فيه ولعله فى الغد يتبين له من شأن إيفا مالم يتبين من قبل فاضطرب واهتم وأزعجه الامر ثم رأى أن يترك ذلك حتي يعلم معضلتها ويعلم كيف تقود نفسها فى مهبها ونحن نرى أن كمالا كان جلدا فى حبه كما كان جلدا فى محنته

وكما نقدر له فى حياته كلها .فهو رجل تفكير ورجل قلب حساس ولكنه ثابت الرأى شجاع النفس

— ٧٧ —

لم تكن والدة ايفا تعلم شيئا عن ذلك الحب الذى استمر هذا المدى ولما تكن تعلم الا أن حال ابنتها مضطربة وأنها كثيراً ماتدخل اليها فى غرفتها فتجد نومها مؤرقا فى ساعة من الليل ماكانت ايفا فى مثلها الا لتكون فى سبات عميق فما الذى أرق نومها وشرد لبها،لم تدر هـذه الام المسكينة وظلت كذلك تخشي أن يكون قد نزل بابنتها مالا قبل لهما باحتماله أو أن تكون مخفية عنها هما من هموم الحياة ألم بها فأزعجها ،اذاً فايفا كانت مبعث ألم وتفكير لو الدتها دون أن تدري

فلما كان هذا اليوم وعادت إيفا متأخرة مضطربة سألتها امها عن شأنها وشأن تاخرها فلم تبدجوابا مقنعا فأدركت أمها ان شيئا وراء الستار مامن ذلك بد فازمعت ان تعرفه ،فانتظرت قليلا وصبرها نافد الا ان ايفا دخلت الى فراشها وارتمت به خائرة النفس، لان الحقيقة قد ظهرت واضحة امام عينيها ولم يعد

بجدى خداع لنفسها ولا انتظار لغدها فأزعجت واخذت تثور ثم تهدا ووالدتها بجانبها تعجب لشأنها وتستفتيها فلا تفتي بشيء ، فثار همها القديم وامتزج بهمها الحديث فاضطربا معا ، وضجت الغرفة بمناحة قائمة

وبعد فلم تطق الام صبرا على هـذا فجلست الي جانب ابنتها وتـكلفت سكون النفس وهـدوء الخاطر وكانت إيفا قد سكنت ثائرتها قليلا ، فقالت : يابنيتي آليت عليك بامومتي الا حدثتيني بهمك الذى تخفينه عني ، إننا يا بنيتي غريبتان في هـذه العالم تائهتان في ساحته فلاأقل من أن تفضي كل منا للاخـرى بما عندها ولا أقل من ان تعاونيني واعاونك على السير في هذه الحياة الشائـكة التي قدر لنا ان نقطع مرحلتها في أسي دائم دون ذنب جنيناه اوجرم اقترفناه ، فهل لك ان تحدثيني بشأنك يابنيتي العزيزة ، فهمت ايفا بأن تقول شيئا فانعقد لسانها وغصت بريقها واجهشت في بـكائها فأخذت امها تنهنه من المها وتروح من نفسها وتقبلها قبلات امومية تطفيء من ثائرتها وتذكرها بان في الدنيا قلوبا تعطف وتحنو ، أخذت في هذا حتي هدأت إيفا

قليلا واغمضت عينيها مستنقذة بالنوم مستغيثة به لينجيها مما يساورها وكان النوم قد اشرف عليها فتركتها والدتها وقصدت الغرفة المجاورة وارتمت بها في هم اليم ونقمة كبيرة على الحياة وثورة في النفس لا مدى لها

— ٧٨ —

كانت ايفا في موقف محرج حقا كانت في موقف توازن فيه بين امها وحبيبها، امها المسكينة التي حملت همها وهم تربيتها وتنشئتها دهرا طويلا وحبيبها الطيب النفس الذي يحبها من كل قلبه فكانت في موقف تفاضل فيه بين عطف الامومة وعطف الحب فلم تهتد الي حل فثارت واضطرب رأسها. اجل كيف يمكنها ان توازن او تفاضل وكيف يمكن هذا الراس المسكين الصغير ان يتحمل النزول عن هذا او ذاك، ان ايفا بين اثنتين اما ان ترحل الي مصر تاركة والدتها للهم والاسي والوحشة فلا تراها الا كل عام وقد لا يتيسر لها ذلك واما ان تتركه كما لا يعذبه هجرها ويعذبها هجره، واحدة من هاتين يا ايفا وكلتاهما مرة المذاق فلم تستطع ايفا الاختيار فوقفت متهادية في مهب هذه العاصفة

العاتية فلما استفتهاامها ثارت برأسها فكرة اخري : انفضي الى امها بسرها وامها لن يجبها الرحيل ولن تتفق وفكرته ام تهجر امها وترحل دون أن تدلى اليها بخبر، ولكن فى هذا قسوة شديدة لا تطيقها نفس ايفا الرقيقة فاضطربت كما رأيناها وثار ثائرها كما شاهدناها مرتمية فى فراشها ووالدتها بجانبها تسألها عن شأنها فلا تجيب حتى أنقذتها هذه الاغماءة الضئيلة فهجرتها أمها الي الحجرة المجاورة، فلم تلبث الاغماءة ان انقضت وعادت ايفا للهم والأسى مرة أخرى ورأت نفسها فى ساحة التفكير ولم تكد تلبث قليلا حتى سمعت صوت امها تناجي نفسها في الغرفة المجاورة ، أجل كانت تناجي نفسها فى صوت ثائر مرتفع فتسمعت ايفا وأصغت الي ما تقول أمها :

— ٧٩ —

جاءت الام وحدها تناجي نفسها وكأن ما بها قد اغناها عن أمرها واثار بركانها ولجلج قلبها فى صدرها فأخذ ينفث هذا الحديث وينثر هذه النغمة :

« ايها الشقاء ما بك مني وما بك من هذه الفتاة المسكينة

ومن هذا الفتى المرتمي لا نفع منه للوجود ولا نفع له من الوجود
ايها الشقاء اعجزت عن ان تصيب غيرنا من الاقوياء الاشداء
فاجتمعت فى قلوبنا الضعيفة الضيقة ، ايها الشقاء الم يكفك
ان اطحت بعائل هذه الاسرة واقعدت من كان في استطاعته
ان يعولها من بعده وتركتني وهذه الفتاة البائسة فى ساحة عذابك
حتى جئت الي والى ابنى اليوم بهم جديد ، ما بك ايتها لابنة
وماذا حل بك واى هم داهم قد اتض قلبك واذهب راحتك
وما كنت تتأثرين لكثير بل كان من شيمتك تهوين الامور ، ما
الذى نزل بك حتي بدل من شأنك ورماك فى فراشك تضجين
وتألمين ولا نكاد نفهم لذلك سببا . ايها الشقاء اما والذي نفسى بيده لو
تصورت رجلا ورأيتك لاهبت بنفسي لافترسك وانا الام الضعيفة
والمرأة المسكينة أيها الشقاء ما بك مني . أفض به الي وحدثني ! »
ثم اخذت هذه الام تردد هذه الكلمة الأخيرة فاضطربت
إيفا وظنت أن بأمها سوءاً ولم تطق صبراً على استماع اكثر من ذلك
فنهضت الي أمها وارتمت بين ذراعيها وقالت ما بك يا أماه ما بك
يا أماه . اهدئي نفسا فاني مفضية اليك بكل شيء والأمر امرك

وإنني منك ولك وبين يديك. ثم أجهشت في البكاء فالتفت بها والدتها وتعانقتا كأنهما حبيبان في موقف لقاء بعد هجر طويل. ثم جلستا هادئتين كأن شيئاً لم يحصل. وأخذت إيفا تقص على والدتها كل ما كان من شأنها، كمال ومن حبها له وأمها منصتة كمن يتلقى الوحي، فلما انتهت إيفا صمتت كأنها الطفل القي المدرسة القطعة التي يحفظها ولا يحفظ سواها، فاهتزت الأم اهتزازة مؤلمة وانتفضت انتفاضة مزعجة وقالت ثم ماذا إيفا ثم ماذا اعتزمت أن تعملي، أتتركينني في صحراء العالم وحدي أم ماذا تعملين فقالت إيفا. عفوك يا أماه إنني مازلت أردد إنني منك ولك وبين يديك» قالت يباركك الله يا بنيتي وينجيك من محنة لو أطعت فيها هواك ورحلت عني لا أراك ولا آنس بقربك اضاقت بي الحياة وسئمت لونها. تذكري ذلك جيداً يا إيفا وتذكري أخاك المسكين الذى لو علم ذلك لبخع نفسه حسرة ولا تزيدى همومي لتريحي نفسك فانك ستشترين لنا هموم دهر براحة أيام لك ثم لا تلبثين أن تندمي وتلومي حيث لا ينفعك ندم ولا تلوم. حذار يا إيفا أن تخدعك نفسك أو

يغلبك قلبك أو يغرك حبك قالت الامر لك ياوالدتى وسأنحر هذا الحب قالت أجل يابنيتي

وكأنما عز علي ايفا أن تقول كلمة ثائرة كهذه وتطعن الحب في ظهره هذه الطعنة فارتمت لدى أمها باكية مضطربة

وكذلك قضتا يومهما في هم قاس حتي أظلهما الليل وسكن العالم فسكنت نفساهما ثم قامتا إلي فراشهما بعد أن حملت الأم ابنتها كل ما في جعبتها من نصيحة وبعد أن وثقت الأم أن ابنتها مطيعة لها مشفقة على حالها وموقفها

وكذلك انتهي هذا اليوم الأليم من أيام ايفا المسكينه

— ٨٠ —

لو أن إيفا قد اعتزمت أن تقاوم حبها وتدافعه لما نهضت في صباحها متألمة نادمة على ما قررته وأسرفت فيه بالأمس بل رأت انها جاءت امراً إمراً أجل إنها أحبت ويجب ألا تكسر وعاء قلبها ولقد علمت أمها بحبها وكان واجبا أن تعينها على أمرها وأن تساعدها على أن تنغمس في هذه السعادة.

سعادة الحب . لا أن تهدم سرادقها وتذيبه إعجابا بان إبنتها ستنحر الحب . أخذت إيفا تفكر هذا التفكير ثم استطردت فقالت . ثم ماذا . ثم انني لا أنحر الحب وحده بل سأنحر قلب كمال وهذا أليم بل هو مستحيل . انه أحبني وأحببته وأكرم حبي فلأكرم حبه . ومن العبث أن أطلب اليه ان يقسم بقريتنا لأنه رجل يريد ان يكون نفسه في عالم ارقى من هذا وانه ليقبر همة نفسه لو بقي هنا . اما انا فماذا اريد من الحياة غير ان انضم الي انسان لعلي ارى بجانبه من نعيم الحياة مالم ار وأمل هذا الشقاء ينفىء عني . وها هو القدر قد هيأ لي هذا الانسان . فلم افر منه ولم افر من سعادتي . كان واجب امي ان تغتبط لا أن تنزعج ولكنها لم تفعل فليس لي الا أن أفر من أمي إلى سعادتي، إلي حبي، إلى كمال » ثم كأنها أدركت أن هذه قسوة متجاوزة كل حد فاضطربت وثارت وارتمت في فراشها فنهضت اليها أمها وقالت ما بك يا إيفا وماذا انفق لنا عنه هذا الصباح قالت لا شيء يا أماه ثم نظرت ايفا الى عيني أمها فرأتهما مخضلتين بالدمع ورأت وجهها قد اكتسى ثوب اكتئاب وهم فعطفت على

هذه الأم المسكينة ونسيت ما فكرته ومحت ما ذهبت اليه منذ قليل، ثم تذكرت ميعاد كمال وميعاد ذهابها الى الحقل فلم تأبه له ولم تحفل بهذا ولا بذاك وألقت بنفسها على فراشها مرتمية ساهمة لا تبدى ولا تعيد ولتفعل القضاء ما يشاء

— ٨١ —

إذا فايفا مضطربة الرأى تبرم ثم تنقض وتنقض ثم تبرم وبين هذا وذاك هي متلفة رأسها حاملة هما لا قبل لها باحتماله ولا تعرف أن تقف على قدميها فى هذه العاصمة ولا تدرى من يقودها فيها. وهاهي قد أقلعت عن مقابلة كمال اليوم فماذا صنع وماعسي أن تكون آراؤه:

ذهب كمال إلى الخميلة وانتظر إيفا بصبر نافد لانه يريد أن يعرف سرها وسرهما ويريد أن يقاوم كل مايقف فى سبيلهما مادام حائلا لا يتفق مع الفكر القويم والقلب الكريم. أخذ ينتظر ثم ينتظر فلم توافه إيفا. وليس هذا بقليل بعدما كان من شأنها بالامس فظن كمال أن الحائل قد امتد سلطانه إلى أن حال بينها وبين القدوم هذا اليوم ثم ذهب ظنه بعيدا فظن أن

ايفا أرادت أن تضعف من ثورة حبها وحبه بعدم قدومها ثم ذهب أبعد من ذلك فظن ان ايفا بدأت تقاوم حبهما لأن لديها سراً تخفيه عنه . وتود أن يظل الستار مسدولا عليه .

ثم عز عليه أن يحكم على ايفا الطيبة هذا الحكم القاسي فخارت قواه واضطرب أمره وارتمى على جانب من جوانب الخميلة مهموما واهيا بعد اذ راى أن ايفا جاوزت ميعادها ولم يعد امل فى قدومها وأن مأساة الحب قد بدأت تمثل

وظل كذلك زمنا فى خميلته متضعضعا خائر النفس متميزاً لأنه لا يعرف هذا المادى الذى عدا على حبهما وهذا الحائل الذى يريد ان يحول بينهما وهذه اليد السوداء التى تريد ان تعبث بحبهما الجميل اجل أن كمالا يريد أن يعلم ذلك فلما لم يهتد لشيء ولم يعد يقدر أن يأتي الانتظار بجديد تحامل على رجليه ونهض الى منزله بين هم وتفكير

— ٨٢ —

كل مايهم كمالا ويفكر به أنه لا يعلم حقيقة موقفهما حتى يستطيع أن يحله حلا معقولا ويبرم فيه رأيا مقبولا ، فلقد ذهب

مع حبه مذهبا بعيدا وسار معه شوطا كبيرا وماكان يقدر أن يخرج منه بحسرة تعبث بقلبه دون أن يعلم لعبثها سببا، بل ماكان يقدر أن يخرج من حبه بمضاة مبهمة تقض رأسه دون أن يفهمها أو يدرك لها كنها

*
* *

إذا فنحن نرى كمالا فى كل موقف من مواقفه يريد أن يستخدم عقله ويريد أن يستفتيه قلبه، فلما عاد إلى منزله عاد مهموما ثم أخذ يفكر قليلا بعقل أكثر اعتدالا فقاده التفكير إلى هذا: قال فى نفسه ان واجبى ألا أضع نفسي فى موقف قد اسخر بعد ذلك من وقوفها فيه فلعل سببا تافها قد منع ايفا عن الحضور او لعلها منحرفة قليلا او لعل شأنا منزليا قد شغلها عن القدوم فلم تستطع موافاتي اليوم ولعلها مهمومة كل الهم لتأخرها عني وما كان لي ان اذهب كل هذه المذاهب فهذا ما يجب لمثلي التعالي عنه، وكل ما فى الامر انني لم أر ايفا يوما . اجل وهذا ما يجب ان يكون سبب تألمي ولا سبب سواه فلقد كنت أحب ان أرى ايفا الجذابة فتسمعني واسمعها لغة الحب العذبة التى

تغذى القلوب وبجلوهمها وتبعث فيها القوة والحياة . كنت اريد أن الأم جراح قلبها ان كان هناك من جراح . ولكنى حرمت رؤيتها اليوم فليكن سرور غد مضاعفا وكفى ولاشيء ابعد من ذلك

اذاً فقكر كمال قد اعتدل وكل مايقوله جميل ومتفق مع الرأى السليم وكل ذلك لتحليله الجميل لكل امر وفكره النافذ الي كل شيء فكمال مفكر ويحسن معرفة الامور ويحسن تدبيرها وتقديرها ولا خطر عليه وعلي فكره الا اذ فكر فى شأن الحياة وقيمتها تفكيراً مغربا . فان نجا من ذلك فلا خطر عليه وانه لولا حسن تفكيره لكان له من ضربات الحب ما يتلف عليه رأسه ويزيد من محنته واضطرابه ولكنه يقدم العقل فى كل شيء حتى فى حبه ولعل هذا عجيب . ولكن هكذا كان شأن كمال. فماذا الذى كتب له فى هذا الحب وماذ قدر له من عاقبته . سنرى !

— ٨٣ —

كتمت ايفا ثورة نفسها عن والدتها وابرمت ان تغالبها وحدها . وظلت بقية يومها تفكر فى اى الطريقين اهو زركوبا

فوجدت كليهما مركبا صعبا الا ان اهونهما ان ترحل
مع كمال وتسعد بحبها وتسعده به والا تحدث انفجاراً فى
قلبيهما وان تتعهد والدتها بالزيارة كل عام وتقضي لديها شهور
الصيف ولا بد ان امها كانت مقدرة اقترانها يوما ما وبعدها
عنها وحياتها حياة مستقلة ثم عادت فذكرت أن امها معذبة
مكسورة القلب وان واجبها ان تكون بجانبها وإن
اقترنت بأحد فليكن من آل قريتها لتكون بجانب أمها واخيها
يشاطرانها سعادتها ان كان ثمة سعادة وتشاطرهما بؤسهما المقيد
وشقاءهما العنيد ، ثم أبرمت ذلك ورأت ان من العبث
بالنفوس واحاسيسها ان تسعد هي ليشقى سواها فان لم تتفق
لها سعادة الا بايلام سواها فلا كانت تلك السعادة . ولما كانت
والدتها قد ثارت ثائرتها اذ علمت بامر حبها واخبرتها ان
فى رحيلها القضاء عليها بالشقاء الذي لا حد له وعلى اخيها بالحسرة
القاتلة فواجبها ان تقلع عن فكرة الرحيل وان تدفن هذا
الحب فى جانب من قلبها وان تحفظ لكمال حسن صنيعه
سواء سمح بالعفو عنها اولم يسمح لانه قد اذاقها لذة الحب ارقي

لذة تحت السماء

*
* *

هذا ما اقرته ايفا بعد ثورة الصباح واطمأنت اليه فبدت لو الدتها بعد ذلك فى ثوب هدوء وسكون فاغتبطت والدتها بنجاة ابنتها من الخطر وانها عادت الي الفكر القويم ولم تفكر فى الذهاب الي الحقل ولا فى مقابلة كمال . اذاً فالحب بدأ يهدأ ثائره فى نفسها

— ٨٤ —

كنا في صباح اليوم الثانى ولا تزال ايفا مبرمة ان تهفو بفكرة الرحيل وان تقبر الحب وان تقضي بعذرها القوي الي كمال الطيب القلب وان تضحي براحتها من اجل والدتها واخيها . ثم رأت في نفسها ضعفاً وخمولا عن الذهاب الي حقلها فرأت فى ذلك خيراً وامتنعت عن الذهاب تهيئة لان تشعر كمالا أن داعيتها قوية وحجتها ناهضة وهمها كبير فيعفو عنها ويصفح ويخفف وقع الواقعة عليه ويطلب لها التوفيق فى حياتها النكدة . ورأت بعد هذا ان فى امتناعها عن الغدو

هذا اليوم مايفهم والدتها ويقنعها انها قد هدأت واطمأنت وانها لم تعد تذكر كمالا ولا ملاقاته ولم تعد تفكر إلا في راحة والدتها المسكينة وفي الاطمئنان اليها والركون الي جانبها وان كل ما كان عارضة زالت ونكبة مرت بهم فلم تمل عليهم

هذا ما رأته إيفا المسكينة المضطربة في مطلع هذا اليوم فاطمأنت ثم قامت تطل من نافذتها وتتأمل الجبل ومنظره وما أبدعت يد الطبيعة فيه وظلت كذلك ساعة طويلة حتى كان ميعادها إلي الحقل قد مر فتذكرت ذلك ، فطرق فكرها خاطر اليم أزعجها للحظتها فحادثت نفسها هذا الحديث

إيفا . إيفا ما أقساك وما أصلد قلبك . أين كمال الآن إنه منتظر في خميلته بصبر نافد . نعم انه ينتظر ايفا القاسية ان همالها يمتوره ويقطع عليه كل سبيل ، ان غصة الهم يشرق بها ويالم ، ان فكرة قاسية عن ايفا تتردد في أنحاء رأسه ، انه يقول ان ايفا قد عبثت بحبه واتخذت كمالا ملهاة لها . أجل ماذا عساه يقول غير ذلك ، وله أن يقول ، أجل انني أبيع سعادة الشباب براحة

الشيوخ ان أمي قد اخذت بحقها من الحياة سعادة او شقاء.

أما انا فيجب ألا أضيع حقي ، واذا كانت العلائق بين الناس تضطر كل انسان لان يحمل هم سواه ويضيع سعادته في سبيل سواه فانها إذاً علائق فاسدة ، اذاً لا ابيع سعادة الحب باي ثمن ، ولا كفر عما جنيت في جانب كمال في هذين اليومين. ولأضرع اليه أن يغفر ذلك ، فانه فتى طيب كريم وقد وفقت لحبه فلأتمسك به ولقد وفق لحبي فواجبي الا اخيب له املا ولا رجاء ولا ظنا . اذاً فلتسر والدتي بسروري او فلتجدشأنها فهي وما تريد

وكانما رأت ايفا انها قاسية على والدتها كل القسوة فصدمت صدمة حادة عادت بها الي فراشها ساهمة متألمة

وبعد قليل وافتها والدتها فتظاهرت ايفا بالهدوء فاطمأنت والدتها وظنت ان ابنتها في طريق السلوان !

وانقضى يوم ايفا وقد ابرمت الاحتفاظ بحبها ومقابلة كمال في الغد ما من ذلك بد ، وليكن بعد ذلك ما يأمر الحب ان يكون.

—٨٥—

عاد كمال الى خميلته فى اليوم الثاني وهو لا يسيء ظنا بايفا ولا بحبها ولا بعقيلتها وانما يعتقد ان وراءها هما اليما وان عائقا قاسيا يعتاق مجيئها او يعتاق حبهما. عاد كمال وهو يظن ان ايفا متألمة كل الالم لتغيبها ومتحسرة جد الحسرة لعجزها عن لقائه. عاد وهو يتمني ان لو قدر له ان يرى هذا الهم الذى يقلقها ويساورها ليقتله قتلا. اجل هو يحب ايفا حباً جما ويجب أن يقاوم كل مايؤلمها وينغص حياتها بل كل مايخدش سعادتها عاد بهذا القلب الرقيق والفكر الهادىء الذى ندرما يتفق المحبين فى حين أن إيفا كانت تعتقده ناقما عليها وعلى غيابها وانقطاعها عنه، عاد وهو يقول: إن إيفا احبت كمالا وكمالا أحب إيفا، فايفا لكمال وكمال لايفا

أخذ كمال ينتظر إيفا فلم تقدم فانتظر أكثر فلم يجد الانتظار شيئا فألم به ألم كبير من أجل إيفا وقدر ماهي فيه فزاد تأثره وراوغت عينه دمعة فمانعها لانه ماتعود أن تخضل عيناه بدمع في موقف من مواقف حياته فهو يتأثر ولكن بقلبه لان من

الشجاعه فى رأيه كتمان الهم أما الدموع والبكاء وما اليهما فتفضح المهموم وتبين همه وضعفه وتشرك فى الهم سواه ، وهذا ما لا يراه جميلا ولا لائقا ، فلما رأى الانتظار يشاوجم واكتأب واخذ يناجي نفسه تارة ويناجي إيفا تارة أخرى فيقول .

ما بك الآن يا ايفا وفيم تفكرين وفيمن تفكرين أجل انك لا تفكرين الا فى حبك وفى كمال ، أنت طيبة يا ايفا وكريمة ومن الكرم ألا أحرم رؤيتك يومين كاملين . اذاً فهناك حائل قاس بيننا ولكن لا بد أن تتغلب عليه طيبتك أو تتغلب عليه عزيمتى »
ثم نهض فعاد الى منزله

—٨٦—

نحن فى اليوم الثاني وكمال ينتظر في خميلته وقد اعتزم ان تخلفت ايفا هذا اليوم أن يبحث عنها وان حجبوها خلف السحاب ولا بد أن يعثر عليها فانه يعلم أن ايفا لا يد لها فى تأخرها فلا بد أن يدا أخرى تعمل : اذا فلتقاوم هذه اليد

*
* *

أما ايفا فقد نهضت مبكرة وكانت أمها قد اطمأنت الى

، انقطاعها عن شأن حبها وانفصالها عن ملاقاة كمال يومين متتاليين فلما نهضت اليوم لتقصد حقلها لم تجد من أمها ما يمنعها بل لم ترتب امها فى شأنها فذهبت ايفا معتقدة ان المقادير تساعدها مستعدة لاستغفار كمال عن ذنبها

كان كمال مطرقا فى خميلته مفكرا فيما يقدر له فى حبه وفى اليد السوداء التي تهزو به، واذ هو بايفا قد وصلت الى الخميلة وحاذته فانتبه جذلا واستيقظ طربا لا تكاد تتسع له ثيابه وخميلته فتعانقا تعانقا طويلا وقصت فيه القلوب حديث شوقها ووجدها ، ثم أبدت ايفا سرورها العجيب برؤيته وأرادت ان تجثو لاستغفاره فأنهضها وجلسا معا وبدأ حديثهما :

قالت ايفا ماذا عساك قد قلت فى تأخرى يا كمال قال كل خير ولقد تألمت ظنا ان باك ألما وتحسرت لحرمانى من لقائك يومين كاملين ؟ قالت الم تظن بى الا هذا قال ما ذهبت الا اليه قالت ما أطيب قلبك يا كمال وما اكرم نفسك ، ان حبا مثل هذا يجب ألا يعارضه شيء او يحول دونه امر قال وما الذى يعارضنا ويقف دوننا ؟ لشد ما اخفيت عنى سرا ولكنى تألمت لذلك ، قالت

او اعتزمت الرحيل قال وكيف اعتزمه دون ان اراك قالت اذا فاستمع الي ياكمال وهبني كل سمعك ولبك:

لم احدثك عن اسرتي ولم تسألني عنها كرما منك، وان سرها علة همي ذلك الهم الذي حملته في ناحية من قلبي فأثقله وما أظن ان احدا يرفعه عني . قال كمال ادل به وانا دون هذا الهم حجر قالت ماذا تقول في أسرة لاعائل لها، ثم اجهشت في البكاء لاحظتها واخذت تتحدث في صوت متهدج فصل كلماته الانات والآهات وتقول . ماذا تقول في اسرة قتل عائلها وارتمي ابنه لاخير فيه لنفسه ولا سواه وبقيت الام بحسرة حادة والابنة بهم الم . هذه اسرتنا ياكمال وهذا هو شأنها . ثم أخذت تقص عليه التاريخ صفحة صفحة ثم حدثته عن شأن والدتها وعلمها بحبهما وثورانها عليه . ثم انتهت فقالت وبعد هذا كله قد أزمعت أن أكون قاسية على أسرتي ولا أقسو على الحب وأن اكون اليك مدى الحياة فان حبا ربطته يد الله يجب الا تفصله يد البشر» . قالت ذلك ثم ارسلت آخر سرب لديها من الدمع ثم انتظرت ما يحكم به كمال في هذا الموقف الاليم

كل ذلك وكمال يتأملها ويلتقط الخبر جملة جملة ويرسل فكره خلفه ليبدى رأيه فيه حتى اتمت روايتها وهو كانما كان يرى الصاعقة منقضة على حبهما وليست شيئا أقل من الصاعقة يمكن دفعه ومقاومته كما كان يظن. فاضطرب لانه سينطق بالحكم والرفض قاس والقبول قاس ثم نظر فرأى إيفا تنتفض بجانبه ولو أنه صادمها بالحكم الحاسم لانكسر وعاء قلبها الساعة، فرأى ان ينتظر الي الغد لعله يهتدي الي جديد

ثم نهنه من هم إيفا وأخذ ايتحادثان قليلا حتى كان موعدها افنهضت وحيته تحية جميلة وقالت إلي الغد يا كمال ، الي الغد لأليم أو الغد السعيد ؟

— ٨٧ —

« كيف يكون الغد سعيدا يا إيفا وكلا الامرين كركوب الاسنة » هذا ماكان يقوله كمال لنفسه بعد ان نهضت ايفا ثم استرسل فقال : هـذا موقف محرج يا ايفا أوقفنا فيه القدر فما لك لم تقصي على ذلك من قبـل ومالى، لم أسألك عن شأنه ، ألا لقد مهد القدر لهذا الموقف الاليم تمهيدا قاسيا ،

ثم نهض الي منزله وفكره يتصفح الامور ويوازن بينها وجلس وحده هناك على متكأ مشرف على الجبل وأخذ يتم كتاب أفكاره :

فكر كمال فى البقاء فى لبنان فوجده ضربة لنفسه ومستقبله وضربة لاسرته ولابيه ثم فكر فى الرحيل بايفا وهجرها لامها المسكينة فرآه عملا لا يتفق والانسانية وخشونة لا يرتضيها أحد حتى الحب نفسه ثم فكر فى الرحيل وحده دون ايفا فرآه حلا قاسيا على نفسه ونفسها ثم عاد فرآه اهون الامور واقربها الى العقل وان كان كلها صعبا وكلها مربكا

ثم قال فى نفسه : أجل ان على ان ارحل وحسدى رحمة بهذه الاسرة المسكينة ، رحمة بهذه الام التى يعاندها الدهر وبهذا الاخ الذى أفسدت عليه حياته ، واذا كنت انا اخشي فراق أبي واخشي انكسار قلبه حسرة وألما فلم لا اخشى انكسار قلب هذه الام الرءوم وهذا الاخ المسكين ، الان الحب قد اضل ايفا فلم تهتد الي الرأى القويم والحب يعمي عن كثير فهل يضلني الحب أيضا ام اكون شجاعا في الحب واوصل الضربة

الي نفسي بدل ان اوصلها الي سواي . ان الضربة التي تصيب بها سواك تصاب لها نفسك فهي ضربة مزدوجة اما التي تصيب نفسك فقد لا تتعداك . اجل ان فراقها حسرة حادة ولكنه هو الحل ...

ثم ارتمي على مقعده يتصور فراق إيفا تصوراً قاسياً ويناجي نفسه بهذا :

أ كل هذا كان مزاحا وهزلا ، ولماذا انتظر القدر فلم يرسل بصاعقته الا وقد عقدنا الحب وأوثقنا عقده ولماذا لم يهف به من يوم هفا بقلبينا نسيمه . ألا ان هذه اقسوة . ولكن يجب أن أقف موقف رجل أمام كل محنه فلأ كن رحيما شفيقا بغيري قبل أن أ كون رحيما بنفسي ولأ رحم الانسانية قبل أن أرحم الحب . ولتنتصر الانسانية ولينهزم الحب . فهذا هو أول واجبي لدى الانسانية اما واجبي لدى ايفا فان اقنعها بالركون الي والدتها وان في رحيلها اساءة كبيرة الى والدتها لانها ستهجرها هجرا طويلا وهي في حاجة اليها بجانبها كل ساعة ولانها لا تدرى اذا كان في استطاعتها ان تعود امها كل عام او يحول حائل دون ذلك او يصدأ قلبها بالبعد والهجر.

وواجبي نحو نفسى ألا أسيء الي احد غير نفسي فلقد اسأت الي كثيرين فى محنتي الاولي وهانذا امام محنـة ثانية فلاقلل من ضحاياها مااستطعت .ثم عاد فقال .ولكن هل تقنع ايفا بهذا انهذا لمستحيل .ان قلبها متغلب على عقلها وحبها متغلب علي عاطفة الأمومة والاخوة والانسانية فهي لاتحتمل ضربة كهذه ولاتبيع حبهـا عن رضى بثمن ما فما يكون الحل إذاً؟

ثم وقف بفكره لحظة أمام كل حل مستطاع ثم صاح فى نفسه: لقد وجدته القد وجدته! إن الحل أن أكون قاسيا على نفسي كل القسوة وأن أحملها أكبر تضحية وأن أعـد إيفا بالرحيل معي فاذا تهيأت لذلك ووافت تركت لها كتاب اعتذار فتسيء بى ظنا وتحسبني كنت ألهو بها وتحملني تبعة الأمر وتبعة الخلف ثم تجتهد فى أن تتخلص من حب لم أحترمه ومن إنسان عرفها فهفا بحبها ثم لاتلبث أن تسلو شيئا فشيئا .فهي فتاة قروية ولاتزال لديها أنفة القرويين وعزة انفسهم .أجل ولـكن ثمن هـذا كلـه أن تسيء إيفا بي الظن وأن يأتي يوم لاتفكر فى .فهل أرتضي ذلك لنفسي؟ بلي إنى أرتضيه ويجب أن أدفع هذا الثمن كله

ولكن سأفارق إيفا ولعله فراق مدى الحياة . يالله . إنني قاس كل القسوة ولكن كل ماسوى ذلك مستحيل وكفي !

— ٨٨ —

كان اليوم الثاني . وطلعت شمسه واتكأت فى جانب السماء ونظرت مايفعل الحب بايفا وكمال فى موقفهما العجيب، فهو موقف قتال بين القلب والعقل والانسانية والحب، فماذا كان فى هذا اليوم

قدمت ايفا مبكرة فى حالة المتهم الذى سيحكم القضاء بتسريحه أو بحكم قاس يتلف قلبه ، وانتظرت بالخميلة ساهمة ساكنة، وبعد قليل وافى كمال وقد قدر أن هذه هي المقابلة الأخيرة لايفا. المقابلة التى سينقضي الأمر فيها بينه وبين ايفا . المقابلة التى سيقف فيها فى مهب العاصفة ثابتا لا يتزعزع وجلداً لا يخف. أجل ان شأنه مع ايفا سيتم هذا اليوم وسيكون موقفه عجيبا. فسيؤ ملها من حيث يعلم ان الأمل سيقتل فى الغد وسيتحدث عن الحب وهو يعلم أن الحب سينحر أمام ماسيفعل ، اذاً فهذا موقف محرج ولكن كمالا كان شجاعا وله أن ينهض بعبئه

اجتمعت ايفا وكمال ساهمين فى الخميلة ثم كسرت ايفا صمتهما وقالت . مالديك ياكمال . قال ماتريدين يا ايفا قالت بم حكمت فى قضيتنا ؟ قال بما تشائين قالت اذاً فلنرحل معا قال لك ما تطمئنين اليه قالت فمتى يكون الرحيل قال غدا قالت اذاً أهيء أمرى وأجمع شجاعتي قال نعم قالت اذاً فلنفترق الآن على موعد فى الغد ولا نطيل موقفنافانه لقاس وأخاف أن يغلبنا الضعف فنرجع فيما أبرمنا ونحن نريد أن ينتصر الحب على كل شيء قال نعم ثم افترقا وانصرفت ايفا

أجل لقد انصرفت ايفا ووقف كمال يتأملها ويأخذ منها بنظرة طويلة لان هذه آخر نظرة يمنحه الحب اياها . ثم اخذ يتأمل اختتام الروايه بهذا الاختتام الاليم فظن نفسه فى حلم ثم افاق الي ان هذاحق لاريب فيه فارتمي فى خميلته خائرا وهو يقول . لقد انتهي كل شيء وحكم القضاء حكمه . اذاً بيدي سأقتل الحب المقدس . هذه قسوة اليمة لا يأتيها سواى ولكن هذا خير من أن تقتل هذه الام وهذا الأخ حسرة وكمدا . اذا فليكن ما يريد الله . ان كمالا يجب أن

يكون كمالا فى كل ساعة ويجب ألا يخيب ظنه فى نفسه
ثم نهض ليتهيأ للرحيل !

— ٨٩ —

لم تهدأ ايفا تلك الليلة ولم يزر النوم مقلتيها وأخذت تنتظر الصباح بصبر نافد وهم كامن حتى كان هذا الصباح المنكود فوقفت فى منزلها موقف وداع أليم وأخذت نظرة طويلة من كل مافيه وكل من فيه وأخذت تناجي نفسها وتقول : أأراك أم لا أراك ثانية يا جبال لبنان الجميل ؟ وانت أيها المنزل الذى ضم الأسي دهراً أأراك مرة اخرى أم يطويني البحر ام ينقطع بي الطريق ام اذهب فأسلوك وانساك ، وانت ايتها الأم المسكينة بماذا ستتهمين ايفا؟ ان قلت انها عاقة لك فتذكرى انها وفية للحب وإن قلت انها لا تحبك ولا تحفظ جميلك فاعلمي انها ليست عاقة لك وانما الحب قد غلبها على امرها وعلى كل شيء وان وقفت تذكرينها فى موقف فلا ترسلي اليها نقمة ولكن اطلبي لها التوفيق والسعادة، وانت ايها الأخ المسكين اماتراني بعد هذا فترفه شيئا من هم الحياة الذى تحمل . وهل

سيفصل القضاء بيني وبين ، واسائلك فصلا حاسما ، وهل ستحكم على حكما قاسيا كما ستحكم والدتك ام ستكون ارأف منها بتقدير الأمور ، اشد ما يعاكسني الدهر ويعاكسكما ايتها الام وايها الاخ ، ولكن لعل له في ذلك سراً .

الوداع الوداع فأني لا اطيق اكثر من ذلك واخشى ان ينفجر قلبي

الى كمال . ليحمل عني بعض ما انا فيه . انه اصبح كل شيء لى فى الحياة

ثم ارسلت دمعة حارة توقيعا لهذه الرسالة المؤلمة . ثم ذهبت فى سبيلها للقاء كمال

— ٩٠ —

كان هذا اليوم موعد سفر كمال فنهض فى الصباح قبل أن تخط الشمس لاشعتها طريقا في الوجود وذهب الى خميلته ليتمم خطته . فترك كتابا لا يفا . ووقف امام الخميلة يتأملها تأملا طويلا ويشكرها على ما اسدت اليه من يد ويودعها اجمل الوداع . ثم سقطت من عينه بالرغم عنه دمعة على هذا

الحب الذابل . ثم حمل نفسه على ما بقى فى رجليه من قوة وسار وكأنه لا يستطيع ان يبدى اكثر من ذلك وسأل كل ما حوله أن يحدث ايفا بما عجز عنه

فلما جلست الشمس على اريكتها جاءت ايفا الي خميلتها سائرة سيراً متثاقلا كأنما لا يزال هناك دافع يدفعها الي الارتداد والوجوم . فلما وصلتها اينقذها كمال من همها وجدت هنالك الهم والأسى . فلم تجد كمالا وانما وجدت مكانه خطابا فافتضته فرأت فيه هذا الحديث الاليم :

« ايفا العزيزة :

الوداع ياإيفا . كونى لامك وأخيك «كمال»

قرأت ايفا هذا الخطاب ثم أعادت قراءته ثم وقفت جامدة ساهمة ثم انفجرت باكية. ثم عادت ثائرة وأخذت تهذى وتقول .

أحلم هذا أم حقيقة . أهزل هذا أم جد . ماذا ألم بك ياكمال وأى فكرة قاسية احتلت رأسك . ماعهدتك قاسيا ياكمال فهل تقسو هذه القسوة علي وعلى نفسك ما اكثر ما خدعت ياكمال . ثم صمتت قليلا وعادت فقالت :

انتهي عهدنا بك أيتها الخميلة . أكل ما اعود به من حبي هذا الكتاب . وهذه الورقة الضئيله التي استطاعت ان تقوم حاجزاً منيعا بيني وبين كمال

ثم كأن رأسها قد ثار فصاحت قائلة: اي كمال . ما اقساك وما اصلد قلبك إن يداً تقتل الحب ليست يد حبيب اذاً كان كل ذلك مهزلة وكان كله لهواً بي . ثم عادت فقالت :

ان كمالا كريم النفس ولا بد ان فكره قد خدعه. اجل لقد انتصر فكره على قلبه . انه محب ما في ذلك ريب . بل محب بكل قلبه . ولكنه خدع

وكأنما نال منها كل ذلك منالا قاسيا فارتمت في الخميلة تقبل موضع كمال كالمذهولة او الثائرة التي لا تعرف لها مذهبا ولا تحسن فعلا

وظلت كذلك في ثورتها ساعه من الزمن حتى نال الاسي من نفسها وبلغ حده فعادت ادراجها وهي تحدث كل شيء في طريقها وتصيح به «لقد رحل كمال. لقد رحل كمال ايتها الخميلة فلم يعد لي بك شأن لقد رحل كمال ايتها الجبال وايتها الاشجار

وظلت كذلك حتى وصلت منزلها فصاحت بوالدتها
لقد رحل كمال وارتمت خائرة متضعضعة . ووالدتها تعجب
لهم كمن فى نفس ابنتها ثم انفجر هذا الانفجار الاليم

— ٩١ —

ظلت ايفا في ثورانها وهدوئها وثورانها وهدوئها عدة
ايام قاست فيها ماقاست . تذكر كمالا فتثور ثم تذكر أنه عدا على
حبها فتهدأ .. ووالدتها قائمة عليها تصلح من شأنها وتنهنه من
همها وتفل من حزنها وتحدثها كل يوم هذا الحديث .
يابنيتى ما اهتمامك بمن جفاك وقلاك وما اهتمامك بمن لم
يهتم بشأنك . وماعنايتك بمن خدعك فى الحب وتلهى بجلوسه
اليك واطمئنانه إلى جانبك فى زمن تلهيه بقريتنا حتى حانت
عودته فخال ان شيئا بينك وبينه لم يكن . يابنيتي رفقا بى ورفقا
بنفسك وكوني لي وكونى لنفسك فانك على الآن وعلى
نفسك ، يابنيتي كفي مابقلوبنا من هم فادفعي هذا الهم الجديد
بقدميك فانه لا موضع له من قلوبنا وهي ملاى وكؤوسها
داهقة ، يابنيتي انا قوم على بؤسنا وضعف حيلتنا ذوو كرامة

ومن لم يحفل بنا لم نحفل به ، يابنيتي اين نفسك الكريمة الرقيقة وكيف تبيعينها للحب يابنيتي هؤلاء قوم ذوو نعمة وترفيه يقضون اصطيافهم في اللهو والراحة اما نحن فقوم ذوو بؤس وفاقة فاين نحن منهم وما الذى يضمنا واياهم »

وكأن الوالدة لحظت ان لمثل هذا الكلام تأثيره في نفس ايفا فمازالت تردده وتعيده. لاتمل ولاتيأس .حتى بدأت ايفا تهدأ وفي ذات يوم خلعت عنها همها وصاحت بوالدتها « اجل لقد خدعني كمال وتظاهر بالحب . ولكنى أحببت حبا جميلا صادقا فلا نحر هذا الحب فانه لم يصب موضعه ولا معنى لان أقض قلبي وأكلم قلبك بينما هو الآن هادىء .طمئن ألا لقد كان قاسيا على وماقسوت عليه فلا دفع هذا الحب بعيدا ولأسل كمالا ولاكن لك ولاخي » فعانقتها امها وسمدتا معا وصلتا اليه.

واخذت ايفا في تهوين الامر على نفسها كلماعاودتها الذكرى وكانما عاودها خلقها الاول فتمت لها السلوى

رحل كمال وهو يفكر فيما يكون من شأن إيفا. وهل ماقدره.

سيكون حقا. أم ستبخع نفسها حسرة .وهل نصيحته ستصيب موضعها أم ستكون هباء لا نفع فيه. وهل ستعاود ايفا أخلاقها القروية وتدفع عنها هذا الهم وتخلع عنها هـذا الحب الذى لم يحترم أم سيغلبها قلبها.

أخذ يفكر هذا التفكير حتى اهتدى للتنبؤ بكل ما كان من شأن ايفا وكان تنبؤا حقا . فاطمأن قليلا وأخذ نفسه على مغالبة هذا الحب الذى يهفو بنفسه وأخذ يروح عنها بانه ماقام الا بالواجب والقيام بالواجب لا يخجل ولا يحزن .وبأنه لم يكن قاسيا على ايفا لحظة من حياة حبه وبانه أحبها من كل قلبه فلما رأى أن حائلا يحول بين حبهما واتصالهما وبأن الانسانية تقدس هذا الحائل احترمه وقدسه .وهجر ايفا احب ماتكون اليه. ثم رأى أن يذكرها ذكراً جميلا فحسب لانها قد أسدت اليه يداً كبيرة ولأنها أرته من لذة الحياة مالم ير. أجل لقد أرته لذة الحب النقى. وهل شيء أكبر لذة منه ؟.اذا فكل مايجب أن يبقي لـكمال هو الذكرى الجميلة .وان بقي لسواه فى مثل هذا الموقف ذكرى اليمة تتلف عليه نفسه ونقمة كبيرة على كل ماحال بينهما.

أما كمال فلا ينقم ولا يرى الا أن كل شيء أخذ موضعه وانه قام باداء واجبه وان العقل قد تعارض مع القلب فانتصر العقل ويجب ان ينتصر. وان هواه لم يخدعه عن عقله.

واذا فليقدر كمال عقله وقوته اكثر من قبل. وليعجب بنفسه وبعونه وليفكر اذا فيما ينفع الناس والعالم بعقله ورايه وليران هذا الحب ازجي اليه اصقل قلبه وذهنه ولتعريفه قدرة عقله! واذا فليعد رجل نشاط وقوة وليدفن هذا الحب في اعماق نفسه وليكن اقوى من ان يضعف امامه فيتلف نفسه

هذا ما كان من شان كمال ومن رأيه وهذا ما هداه اليه تفكيره القويم وما اجدت عليه رحلته الجميلة

— ٩٣ —

ان الطبيعة لا تعقد الامور ولا تربكها وانما نحن نعقدها وهي تحلها حلا معقولا. ان كمالا قد اغرب في تفكيره من قبل وذهب مذهباً بعيداً وكان على شفا خطر قاصم فلم ترض الطبيعة ان يضحي فتي كهذا بنفسه في سبيل فكرة عقيمة قاسية كهذه. اجل لم تشأ ان يذهب ضياعا جزاء تفكيره في

شأن الحياة وقيمتها .وشأن حياته هو وقيمتها وشأن بقائه في الوجود والرحيل عنه .فهيأت له هذه الرحلة البديعة وهيأت له شاغل الحب الكبير وهيأت له سعادة الحب ولذته فاعتدل فكره واقتنع ان فى الحياة لذة . وأن فيها سعادة . ثم عادت المقادير فافهمته ان السعادة ليست هينة الي حد كبير بل ان حولها كثيراً من الاشواك .وان طريقها وعر غير معبد .وانك قد تملأ كفك منها ثم تعود فترى كفك صفرا .واذاً فواجبك ان تتشبث بكل ما ينالك من هذه السعادة فان آذنت بالرحيل فلا تقتل نفسك حسرة واعلم ان هذه هي سنة الطبيعة

هذا ماعرفه كمال واعتقده وعرف بجانبه ان ثمن السعادة الجهاد بل لذة الحياة الجهاد . فيجب ان يكون الانسان قوة عاملة فى الوجود والا يشغل نفسه بالتافه ولا بالعقيم .لان هذا لا غاية له إلا العبث بالواجب من حيث لا يصل المرء الي كثير او قليل .ومن هنا جزم كمال بالا يعود لتفكيره العقيم وان يساير الحياة فان القوة فى مسايرتها لا فى معارضتها

فكانت نتيجة جميلة حقا وان المحنة وإن تكن قد حلت

حلا قاسياً عليه وعلى سواه فان هذا هو اهون الطرق لان الطبيعه لا تأخذ في حل مشكلاتنا الا اهون طريق

*
* *

اذاً فقد تكون كمال تكوينا جميلا وعاد انسانا آخر. وانتهت روايته انتهاء معقولا وكفى

*

خطأ وصواب

صفحة	سطر	خطأ	صواب	صفحة	سطر	خطأ	صواب
٦	٤	حاول	أحاول	٦٠	١١	وشباننا	وشبابنا
٩	٢	مطربا	مضطربا	٦٣	٢	المجهرد	المجهود
١٠	٩	منكورة	منكودة	٦٣	١٦	بالقول	الي مايقول
١٢	١	الرأس	الرأى	٦٥	٤	آخذ	آخذاً
٢١	٦	للر	كل	٨٥	٧	كالمتحضن	كالمتحصن
٢١	٧	كل	للر				
٢٢	٤	كل واد	كل في واد	٨٨	١٧	جديد	جديداً
٢٦	١٣	فاقص	فاقض	٩١	١٠	سداً	سراً
٣١	١٤	حائجة	جائحة	١٠١	٥	وجماله	وجمال
٣٣	١١	محتقر	محتقرله	١٠١	٦	تأثيراً	تاثير
٣٥	٤	تنقاد	لاتنقاد	١٠٨	٤	منذر	منذ
٣٧	١٣	إلى هذا	إلي هذا	١١١	١١	واهتملت	
٣٦	٣	أذوقهم	أذواقهم				واحتملت
٥٦	٧	بذوبه	بذويه	١١٢	٦	ايفا	أيضا ايفا